شذى

لصلاح الاسير

يمرّ بي منها شذىً مرسلُ
أسأله العودة ما أسألُ

يهمس في اذني صدى قبلةٍ
يا ثغرها اين نأى المنهلُ

وكان لي روضٌ على صدرها
يضحك في ارجائه الجدولُ

مخضوضرٌ غضٌ على سمرةٍ
جنّت على لألائه الأنملُ

يمرّ بي منها شذىً لونه
وجدي بها او حبها الاولُ

او رفةٌ سكرى على هدبها
ضائعة لمّا تزل تبعولُ

في غابةٍ دكناء لم يغرها
ضوءٌ ولم يخفق لها بلبلُ

فيا شذاها بادرتك المنى
والرغبة الخرساء والمأملُ

عودك عود لرؤىً حلوةٍ
وفي حواشيك غدٌ مخملُ

ابن خلدون ومكانه في تاريخ الفكر

بقلم جبرائيل جبور

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

في اواسط القرن الثالث للهجرة دخل الاندلس فيمن نزح اليها من الجزيرة العربية ايام الفتوح رجل عربي حضرمي كندي ينتسب الى وائل بن حجر من اقيال اليمن اسمه خالد بن عثمان فنزل بقرمونه ثم انتقلت أسرته الى اشبيلية وعرفت بآل خلدون على طريقة الاندلسيين في الالقاب كعبدون وزيدون .

واصبح لهذه الاسرة في اشبيلية سيادة وسلطـان تقلبت في احضانها نحو اربعمائة سنة ثم اخذت دعائم سلطانهم تتصدع واخذ نفوذ امراء قشتاله النصارى يقوى فجلا هؤلاء الخلادنة عن الاندلس كلها ونزلوا بتونس ، فقربهم امراؤها ورتبوا الكثير منهم مناصب في البلاط والدواوين ونبغ طائفة منهم في العلم والفقه والدين.

وفي غرّة رمضان من سنة ٧٣٢ نقل البشير نبأ ولادة خلدوني جديد سميّ بعبد الرحمن وكنيّ حين صار اباً بأبي زيد ولقب حين اصبح قاضياً للقضاة بوليّ الدين وعرف بعـد موته بابن خلدون ، وهكذا فقد طغى اسمه على سائر آل خلدون قبله وبعده وأضاف الى مآثر اسرته – ملوك كندة – مأثرة من مفاخر ما خلّف العلماء قاطبة في علم الاجتماع والتاريخ فكأنما اياه عنى الشاعر حين قال :

والجد كندة والبنون هم   فذكا البنون وأنجب الجد

ولد بتونس وبها نشأ وترعرع ، فدرس على ابيه محمـد وغيره من علماء تلك المدينة اللغة والفقه والادب وبعض المنطق والفلسفة الى ان كان الطاعون الجارف فمات والداه وكثير من شيوخه وهو لا يزال في الثامنة عشرة فلم تصرفه هذه المحنـة عن متابعة علمه والاتصال بمن بقي من شيوخه او بمن وفد من العلماء على بلده وفي الواحدة والعشرين عين كاتب العلامة في البلاط التونسي ودخل في دور جديد من حياته ، ولكنـه كان يطمح الى منصب اعلى فما كادت الفتنة تقع في تونس حتى هجرها بجيـلة وتحوّل الى سبتة ونزل على صاحبها ابن عبدون فاستدعاه سلطان مراكش ونظمه في اهل مجلسه العلمي واستعمله في كتابته . وما زال يرقى في علمه ومكانته حتى اوقع عليه عيون الحساد فكثر منافسوه وكثرت السعايات به فغاص في مؤامرات السياسة حتى الركب . فمرة يُدسّ عليه ومرة يدس هو على غيره وتارة يعتقل وطوراً يطلق سراحـه وآونة يظاهر اميراً واخرى يظاهر خصم هـذا الامير وحيناً ينزل بلداً وحيناً آخر يهجره الى غيره وهو في كل هذا يعمل في مختلف المناصب السياسية والعلمية حتى دفعت به الاقـدار الى الاندلس فحلّ غرناطة ضيفاً مكرماً على ملكها ابي عبدالله بن الاحمر ووزيره ابن الخطيب ، ثم أوفد الى ملك قشتالة المسيحي بمهمة من قبـل ملكه فقام بها خير قيام ولكنه ما لبث ان عاد الى المغرب بدعوة من سلطانها فعُيّن رئيساً للوزارة وظل يتقلب في المناصب العليا عند مختلف السلاطين والامراء طيلة ايام الفتنـة في تونس والمغرب والاندلس حتى انهى الدور الثاني من حياته ساخاً ثلاثاً وعشرين اخرى من سني عمره مقسّماً بين وظائف العلم والسياسة يتخبط في مدرسة العالم الكبرى بين عز المناصب وذلّ الاضطهاد والدسائس حتى انضجته السنون وعلمه الاختبار وها هو في الرابعة والاربعين في مطلع الدور الثالث من حياته يسأم الوزارات ويعتزل المناصب ويهجر المدن قاصداً صحباً له من آل عريف فينزل مع اهله وولده في قلعة لهم مختلياً عن مشاغل السياسة اربع سنوات بكاملها تتفتق

فيها اكمل عبقريته فيضع مقدمته الشهيرة وشيئاً من تاريخه الكبير، وهنا تشتد فيه النزعة للدرس والعلم فيعود الى تونس مسقط رأسه ويقضي اربع سنوات أخر بالتدريس والتأليف فينقم عليه مفتي تونس ويوغر صدر السلطان ويشعر ابن خلدون بالامر فيستأذن السلطان بالهجر متذرعاً بالحج فيأذن له دون اهله ويصدهم عن اللحاق به . فيصل الاسكندرية ويفوته الحج فينتقل الى القاهرة، وهذا في عاصمة العالم الاسلامي وقد سبقه اليها ذكر وصيت، يفد عليه الطلبة من كل فج وصوب فيجلس في الازهر للتدريس ويقضي بامر الملك فيحسن القضاء ، وعاوده الحنين الى اهله وولده فاسترحم سلطان مصر ان يشفع لدى سلطان تونس بتسييرهم اليه فشفع له ثم ما لبث ان ثار عليه منافسوه وتآمروا عليه عند السلطان فتنكّر عليه وعزله عن القضاء ، وانه لفي محنته والاقدار تكيده وتسخر منه اذ بنبأ يصله يفيد ان السفينة التي كانت تنقل اهله قد غرقت بمن فيها جميعاً ، ففقد كما قال المال والسعادة والبنين .

وذكر الله فحج ثم عاد الى مصر ، وظهر تيمورلنك مهدداً الشام فسار اليه ابن خلدون مع وفد من العلماء يتوسطون لصيانة المدينة وحوصرت دمشق وانسل ابن خلدون سراً وقابل تيمورلنك ونال اجازة وجوائز منه ولكنه لم يُفلح في غرضه واستبيحت الشام على ايدي التتر ثم صرفه الطاغية التتري الى مصر فبقي فيها عاكفاً على الدرس والتأليف يراسل الادباء وترد اليه رسائلهم الى ان مات سنة ٨٠٨ وهو في حدود الخامسة والسبعين .

وهكذا فقد تقسمت حياته في رقعة العالم الاسلامي الواسعة من اشبيلية الى مكة والشام فلمس بنفسه حركات البربر فيها وضغط التتر عليها وهجمات ملوك النصارى شماليها وشهد تخاذل امرائها وسلاطينها وانقسام كلمتهم ودسائسهم ومؤامراتهم حين عصفت بهم رياح الاقدار .

وتفرقوا شيعاً فكل جزيرة   فيها امير المؤمنين ومنبر

فكان له من هذا كله خير معلم وافضل اختبار ، وظهر اثره في هذه المقدمة التي وضعها لتاريخه الكبير وهي وحدها كتاب شامل كبير ينطوي القسم الاول منه على توطئة هامة في علم التاريخ وتحقيق مذاهبه او ان شئت فقل مصطلح التاريخ ويدور القسم الثاني وهو الاكبر على علم الاجتماع او العمران كما يسميه هو ويبحث فيه اثر العمران في التاريخ وتأثير البيئة والاقاليم في احوال المجتمع ويعرض للتطور البشري في مختلف المراحل غير مهمل الالتفات الى بعض المشاكل الاقتصادية هذا حين كان العالم الغربي بعيداً عن فهم هذه القضايا لا يكاد يفقه اكثر علمائه حتى معنى هذه الاسماء .

وقد وضع حين بحث غاية التاريخ ومذاهبه نظريات فذة صائبة يكاد يحار العلماء اليوم كيف استطاع مثله ان يتوصل اليها وقد حاول فيها ان ينحو بالتاريخ الى منهج جديد يخرجه عما اوصله اليه المؤرخون السابقون ولكنه مع الاسف لم يطبق هو نفسه هذه النظريات في تاريخه فتورط بمثل ما تورط به اسلافه على ان هذا لا يمنع ان يكون تاريخه من خير المصادر العربية لا سيما فيما يتعلق باخبار البربر . وان يكون بحثه في مصطلح التاريخ او فقه التاريخ اذا شئت اجدر محاولة حتى زمنه وكذلك قل في نظرياته في علمي الاجتماع والاقتصاد .

وليس من شك في ان علماء الحديث قبل ابن خلدون قد وضعوا لرواية الحديث شروطاً تنطبق الى حد كبير على التاريخ ولكن احداً قبل ابن خلدون لم يضع شيئاً في مصطلح التاريخ ، وفلسفته ونقد مذاهبه ، وليس من شك في ان بعض علماء العرب قد عرضوا لبعض قضايا العمران او الاجتماع ولكن احداً قبله لم يضع درساً وافياً فيه ونظماً رائعة له ، وليس من شك في ان العرب قبله التفتوا الى بعض شؤون الاقتصاد ولكن احداً لم يتطرق بمثل هذا العمق في التفكير الى الاسس الاقتصادية التي عرض لها ابن خلدون : انها لعبقرية عربية فذّة : ونبوغ عربي عظيم ! ماذا اقول ؟ لقد سبق ابن خلدون علماء الغرب انفسهم في هذا المضمار وحسبي شهادة المتخصصين منهم في هذا السبيل . خذوا مثلاً فلسفة التاريخ وانظروا ما كتبه في هذا الموضوع الاستاذ الانكليزي روبرت فلنت في كتابه تاريخ فلسفة التاريخ : وها انا انقل كلامه كما عربه الاستاذ ساطع بك الحصري في كتابه الجديد القيم — دراسات عن مقدمة ابن خلدون — قال فلنت : « من وجهة علم التاريخ او فلسفة التاريخ يتحلى الادب العربي باسم من المع الاسماء فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى يستطيع ان يقدم اسماً يضاهي في لمعانه ذلك الاسم . » (١) «ان كل من يقرأ مقدمته باخلاص ونزاهة لا يستطيع إلاّ ان يعترف بان حقّ ابن خلدون في ادعاء هذا الشرف — شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ وفلسفة التاريخ اقوى واثبت من حق كل كاتب آخر

(١) ص ٢١٦ وص ١٤١

سَبق فيكو » . (١) « ليس افلاطون ولا ارسطو ولا القديس اوغسطين بانداد له واما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه». (٢) وقال : « لو عرف ابن خلدون العالمين الكلاسيكي والمسيحي وبحث وعمّم فيهما ايضاً بعين الاستقلال الفكري ونفوذ النظر لجاءت رسالته من اعظم واثمن الرسائل في الادب العالمي .... وعلى كل حال فان الكتاب الذي تركه لنا من العظمة والاهمية ما يكفي للاحتفاظ باسمه وشهرته الى آخر الاجيال » . (٣) وقد علّق الاستاذ على هذه الملاحظات بقوله : « ان صدور مثل هذه الكلمات التقديرية من المؤلف المشار اليه بالرغم من نزعته الدينية الشديدة يدل دلالة واضحة على شدة اعجابه بمقدمة ابن خلدون عند اطلاعه عليها بعد اكبابه على درس جميع المؤلفات التي تحوم حول فلسفة التاريخ منذ بدء التفكير في العالم القديم حتى اواخر القرن الاخير » . (٤)

اما آراؤه الاقتصادية فقد عرض لها الدكتور صبحي المحمصاني بكتابه القيّم في الافرنسية — آراء ابن خلدون الاقتصادية — واشار الى فضل ابن خلدون في هذا المضمار . وحينما اخذ المستشرقون يتعرفون الى آدابنا اسمى هامر « Hammer » ابن خلدون بمونتسكيو العرب او مونتسكيو الشرق وشاعت هذه التسمية حتى ان رفاعة بك الطهطاوي اشار في كتابه « تخليص الابريز الى تلخيص باريز » (٥) الى هذا اللقب لابن خلدون ولم يفته ان يذكر ان بعضهم يلقب مونتسكيو نفسه « بابن خلدون الافرنجي » وعندي انه كان الاولى ان يسمى مونتسكيو وحده بابن خلدون الافرنج فان ادخال الاقتصاد في التاريخ والالتفات الى اهميته واثره في تطور المجتمع البشري قد وصل اليه ابن خلدون قبل مونتسكيو وغيره بعدة قرون .

بقي علم الاجتماع هذا العلم الحديث في نظر الغربيين ، اجل ان القسم الاكبر من المقدمة يدور عليه فقد اسماه العمران البشري والاجتماع الانساني وذكر صلته بالتاريخ ولكنه اعتبره علماً مستقلاً بذاته ذاكراً خواصه ونظمه عارضاً فيه لحالات البدو والحضر ، مفنداً ما يعرض في العمران من عوارض وعلل — من كسب الى صناعة وعلم وما ينتحله البشر منها باعمالهم ومساعيهم (١) بل كان تياهاً فخوراً بما يضع . شاعراً انه يبتكر شيئاً جديداً ويضع اسساً لعلم جديد مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة ، فقال ولعمري لم اقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة ، ما ادري ألغفلتهم عن ذلك وليس الظنّ بهم . او لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصلنا (٢) . ولقد تنبه علماء الغرب ايضا الى فضل ابن خلدون في هذا العلم « فنشر ناتانيل شميت الاستاذ في جامعة كورنيل في اميركا سنة ١٩٣٠ كتاباً بعنوان (ابن خلدون مؤرخ واجتماعي وفيلسوف) قال فيه : ان ابن خلدون تقدم في علم الاجتماع الى حدود لم يصل اليها اوغوست كونت نفسه في النصف الاول من القرن التاسع عشر . ثم قال ان المفكرين الذين وضعوا اسس علم الاجتماع من جديد ، لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون في حينها ، فاستعانوا بالحقائق التي كان قد اكتشفها والطرائق التي كان قد اوجدها ذلك العبقري العربي قبلهم بمدة طويلة لاستطاعوا ان يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة اعظم مما تقدموا به فعلاً » (٣)

ومن الخير ان نلاحظ ان ابن خلدون لم يهمل علاقة هذا العلم الذي ابتدعه بفروعه اللازمة من سياسة واقتصاد وغيرها من نواحي الحياة وعلى هذا النحو يفهم اليوم هذا العلم علماء الاجتماع .

واودّ لو يتسع المجال لتحليل فضل ابن خلدون في التهذيب وعلم النفس فقد مارس حرفة التعليم ودرّس كما لاحظنا في عدّة مدارس منها الازهر وعرض الى طرق التهذيب ونظمه المعروفة في زمنه وادلى بآراء في تضاعيف مقدمته تدل على انه عالم نفساني يفهم اسرار هذه الحرفة ولا بد لمن يدرس تاريخ التهذيب عند العرب ان يراجع مقدمة ابن خلدون للاطلاع على رأي هذا العالم الجليل ، واودّ لو كان المقام يسمح لي الآن ان استعرض آراء المؤلفين فيه من عرب ومستعربين ولكنّ الغاية من كلامي هي التوجيه لا التعليم وحسبي ان انبهكم الى قيمة هذا التراث العظيم .

جبرائيل جبور

(١) ص ١٦١
(٢) ص ١٦١
(٣) ص ١٦٢
(٤) ص ١٦٢
(٥) ص ١٥٠

(١) المقدمة — الطبعة المشكلة سنة ١٩٠٠ ص ٣٥
(٢) المقدمة : الطبعة المشكلة سنة ١٩٠٠ ص ٣٨
(٣) ص ٢١٤ و ص ٢١٥ من كتاب ساطع بك الحصري

الناس

بقلم مارون عبود
مدير الجامعة الوطنية بعاليه

لقد اصبحت عبداً للناس منذ تصوّرت في البطن ، وتقيدت بسلاسل مشيئتهم حين رفعت يديّ اول مرة نحو السماء . ضايقني فضولهم منذ تحركت اول مرة في ذلك الزندان ؛ فتهافتوا على والدتي ساعة عرفوا ان عددهم سيزداد واحداً . هذا يدلي برأي طبي ورثه عن جدّ جدّه ، وتلك تنثر نصائحها وارشاداتها الصحية ، وهكذا توطدت العلاقات بيني وبين اصحاب وصاحبات المروءة . ارسلوا إليّ نجدة تلو نجدة ليحفظوا حياتي الغالية فلا اذهب طرحاً وتخسر الانسانية واحداً ، ليته لم يكن .

وبعد آلام استمرت ثلاثة ايام غير كاملة وُلدت اخيراً .. ولو عرفت ان نساء القرية في انتظاري واني سأُعرض عليهن مرة واحدة لهربت ، ولكن ، اين المفر ؟ ما أرسلت اول صرخة حتى وقعت عليّ عيونهن وامتدت اليّ ايديهن . كل واحدة تحاول ان تستلم الحجر الاسود ... كان معرضٌ قصير الامد عقبه النقد المرّ . هذه تروزني وتقلب شفتها السفلى ، وتلك تنظر الى التي حدّها رافعة حاجبيها وجفنيها الى العلاء ، واخرى تغمز بعينيها ، وواحدة تقرص جارتها قرصة خفية . هاتيك تقول : دميم ، وتلك تقول : مليح ، وتجر الياء وتقطم الحاء ، واخرى تقول : بشع ولكن بشاعته حلوة ... وغيرها تقول جبراً لخاطر الوالدة : الولد يتغير ويتقلب ، منتحلة لي العذر كأني انا افرغت نفسي في القالب الذي يعجبها لم تقل : اسم الله حوله وحواليه ، يخزي العين عنه الا واحدة فقط تعرفون من هي . هذه امتلأ فوها ضحكاً وقلبها فرحاً ، وحشي صدرها رجاء وأملاً ، وكيف لا ، أما صارت أماً ؟

وتعددت النذور الى قديسين وقديسات وسيدات اختصاصيات فلم ينفعني الا سيدة « المكبوسين » فاستويت على قدميّ . تحننت هذه السيدة على الوالدة فمشى ابنها « المكبوس » مشية الجواد المشكول ولكنه رأى حوله سوراً من الناس اطول من سور الصين ، سوراً لا يفر منه الا ليصطدم بجدرانه ، إن يظنّ انه أفلت من حيطانه اذا هو فيه ، فكأنه عين ضمير قاين .

الناس ، وما اشد فضول الناس ، هـذا يزجرني وتلك توبخني ، وذاك يرشدني ، فكيفما اتجهت اضايقهم ويضايقوني كأني ابنهم جميعاً وكأنهم كلهم اولياء عليّ .

وازداد تقيدي بالناس لما صرت افهم عن ابي وامي . ان تحركت قال الوالد : يامرأة ، ربّي ابنك مثل الناس . وإذا توحشت قالت هي : البس ثيابك مثل الناس . اسمع هذا فلا آخذ ولا اعطي . ويعلو صياحي وضجيجي فتصرخ بي : استح من الناس . والتفت فلا أرى حولي احداً غيرها ، فأرفع عقيرتي هاتفاً : وأين الناس يا أمي ؟ فتقول لي : لا ترفع صوتك ، انا طرشاء ، احك مثل الناس . واذا تراقصت في مشية مدفوعاً بنزق الصبوّة صاحت : امش مثل الناس يا صبي ، واخيراً تنتهرني فأركض وتركض خلفي فتعجبها خفتي فتقف ضاحكة فتصيح بها جارتنا العنيفة : عافاك ياام مارون اضحكي له اضحكي، ربّيه مثل الناس . اما الوالد ، رحمة الله على ترابه ، فكان له اداتان يسبكني بواسطتها في قالب الناس . قضيب ولسان كالقضيب ، اذا تحركت في مقعدي وقف حاجباه على سلاحهما استعداداً للطوارىء ، ثم يصيح بي اقعد مثل الناس . وان ترنمت صباحاً ، وصوتي رخيم كما تعرفون ، انتهرني قائلاً : سبح ربك مثل الناس بهيم انت ، لا صلاة ولا صليب ؟ وإن مددت يدي الى الزاد قبلهم ، او كبّرت اللقمة انتهرني بقوله : كل مثل الناس . واذا ضحكت ضحكة ليست على الوزن والقافية المفروضين قال لي : اضحك مثل الناس ، وكثيراً ما كان ينهاني عن الضحك عملاً بالمادة المشهورة من قانون آداب المجالس ضحك بلا عجب من قلة الادب . هكذا كانت كلمة الناس حملاً ثقيلاً على ظهري وشريطاً شائكاً في طريقي اصطدم به اينما اتجهت ، فنشأت عبداً للناس يسيطرون عليّ ويسيّروني كما تشاء اهواؤهم وعرفهم وتقاليدهم ، كأني لا أعيش لنفسي بل لهم ، كأني مرتبط بهم بناموس اشد من ناموس الجاذبية ، لا يحول ولا يزول ولو

مات احد الاجرام كالقمر مثلاً . كلما قلت احطم هذه السلسلة التي يسمونها الناس اجدني مقيداً بها من جديد ، انها لاغرب من اساطير الف ليلة وليلة

اجل ان كلمة الناس أثقل عبء يلقى على ظهور الناس. فمن منا لا يستجدي اعجابهم ؟ وكم فينا من يحمل نفسه فوق طاقتها ليظهر بمظهر يرضيهم ويلفت انظارهم اليه فيقضي العمر وشبح الهم يماشيه كظله ، يأكل معه في صحنه ، وينام معه في فراشه . وكم من امرأة خربت بيتها لتكون على حد قولها مثل الناس ولا باس . اسمعوها تخاطب زوجها : ماذا يقول عنا الناس اذا رأوا بنطاونك مرفواً ؟ اشتر غيره ، وماذا يقول عنا البشر اذا جاء العيد وليس لابننا طقم جديد ولابنتنا فسطان من احدث طراز ، وماذا يقول عنا الناس اذا لم نشتر كذا وكذا ولم نأكل كذا وكذا ، ولم نعمل Soirée و Mipi — Après . وهكذا تظل تقول الناس حتى تدك البيت من الاساس .

غريبة كلمة الناس ، ما اعظم سلطانها على العقول . لا اقول الناس بلاء الناس كما يقولون ولكني اقول الناس تسيّر الناس وليس احد منا حراً في ذاته فمن يزعم انه لا يبالي بهم يخدع نفسه ، انه اشدنا تهافتاً عليهم ، ومن حسب انه معلمهم فهو احد تلاميذ مدرستهم ، ان شاءوا منحوه الشهادة بامتياز والاّ عاد محترق الفؤاد يردد : ما اصعب مرضاة الناس .

انّ كلمة الناس نطّار منصوب في مقثأة الانسانية لترد عنها الثعالب ، وهي الخفير الدائم على ابواب كهوف التقاليد ، حالت وتحول دون رذائل كثيرة ما كنا نتأباها لولا أعين الناس ، واقصرنا نظراً من ظن انه يتغلب على الناس بغير الناس ، ففي كل عبقرية اثر من عبودية الناس ، فأنا وأنت وهو جميعنا عبيد الناس ولا نحيا الاّ بهم . فهل ألوم أبي وامي اذا كانت كلمة الناس نجمة القطب عندهما يراعيانها في بحر الحياة خوفاً من التيه والسقوط في اللجة .

ففي خلوتنا الخرساء نسمع ضجيج الناس الصاخب ، وفي عزلتنا نحس انهم حولنا يتجولون في مخيلتنا جولان اشباح الغوغاء على الشاشة البيضاء . كانوا في انتظاري عند المهد وسيجذفون قاربي ليبلغ ميناء اللحد ، وان حسبت يومذاك اني نجوت منهم لاني نمت عنهم فشباكهم ستلحقني الى بحر الظلمات .

كل امريء رهن غربالهم ، سينصبون ميزانهم ساعة ينفضون يدهم من ترابي ، وياويلتي ان شلتُ في ذلك الميزان . فإن كنت تخشى ألسنة الخلق وتحسب انها اقلام الحق فاعمل بالمثل القائل : كل ما تشتهيه نفسك ، والبس ما يعجب الناس ، ومعناه وقوف الدولاب ، وليس هذا من نواميس الطبيعة ، فهي لا ترفع عرشاً الا لتجعله شعلة لاحدى ثورات اليوم الثامن . قد تقول وما هو اليوم الثامن ؟ اسمع فأعرفك بهذا المخلوق الجديد : في ستة ايام خلق ربك السماوات والارض وفي اليوم السابع استراح الجبار وتنفس الصعداء . اما اليوم الثامن فهو يوم النّاس . يوم صباحه الازل ومساؤه الابد ، لا يكون مساء حتى تحبل الارادة الانسانية وتلد العجائب . اليوم الثامن جبهة سرمدية لا تهدأ جنودها ولا ينفد عتادها . تنقض صواعق الايام السبعة فتقتل حماراً او تزعزع جداراً ، وتهبط صواعق اليوم الثامن فيغمر المدن طوفان النار والماء . لم يسترح ربك الا لانه خلق عاملاً على صورته ومثاله ، فسبحانه في ملكه فهو الذي جعل كلمة « الناس » قوّامة على الناس ، فدع المنطق وذر القياس ، فالفرض لازم لحلّ المعضلات وادراك المجهولات .

مارون عبود — عاليه

كتمان

•

أحبكِ بالسر لا أدّعي،
أموت ويدفن سرّي معي.
وكلُّ الحكايا التي بيننا   تموت كذلك في مسمعي.

* *

وسكراتنا الهوج حتى الجنون
تظلّ - على السكر - طي الظنون
وكاساتنا سأحطمها   وأخفي الحطام عن الشاربين.

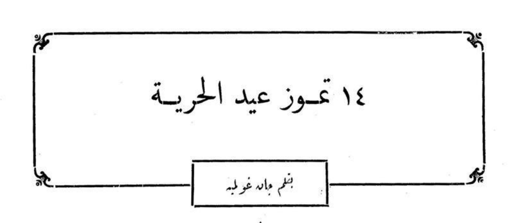
* *

وشامات جسمك وشيُ القُبل
تظل بسرّ الليالي الأُوَل
ليالٍ تلفلف عريك، غبّ ارتواء الشفاه وغبّ الملل.

* *

سأبتك بالحب هذا، الدفين
دعيه دفينًا، ولا تذكريني
فيبقى كلانا، على الدهر سرًّا، كأن لم أكن وكأن لم تكوني

غنطوس الرامي



١٤ تموز عيد الحرية

بقلم جاد غوليه

١٤ تموز ١٧٨٩

ان يوم الثلاثاء ١٤ تموز ١٧٨٩ لهو فترة حاسمة ليس في تاريخ فرنسا فحسب بل في تاريخ الانسانية ايضاً . ان الاحداث التي دارت ، ذلك النهار في باريس كان لها عدا اهميتها الذاتيـــة ، قيمة رمزية : فالشعب ، وقد شغف بالحرية ، اقتحم الباستيل ، وهي قلعة قديمة يرجع عهدها الى القرن الخامس عشر ، منيعة الجوانب ، شمخت طيلة ثلاث مئة سنة فوق العـاصمة ، كابوساً مقيماً ابداً ورمزاً للاستبدادية الملكية .

ان ليلة ١٣ الى ١٤ تموز كانت فاجعـة . الاجراس تقرع . والشعب المهتاج ، حيال اقالة لويس السادس عشر الوزير نيكير ، يشحذ السلاح . وذكر احد مؤرخي تلك الفترة ان = « المطارق تضرب ، والحديد يمدد ويحنى . وكل الادوات النحاسية تصبح ذات قبضات » . يقتحمون ابواب مستودعات السلاح : الارسينال والأنفليد . وينهبون حوانيت الاسلحة ، ان سقوط القلعـة كان ابعد من ان يصدق . عند الساعة الحادية عشر صباحاً ، وبعد طلقات نارية معدودة ، بدأت المفاوضات . واستؤنف اطلاق النار حوالى الساعة الواحدة والنصف . وعند الساعة الخامسة سقطت الباستيل . لم تبد القلعة دفاعاً حقيقيـاً : فالجنود كانوا ضمناً ، متضامنين مع الشعب ، كما اوضح ذلك رومان رولان في كتاب وضعـه خاصة عـن ١٤ تموز . ومن اطرف المظاهر الباريسية ، هو ان الجمهور تراكض ليشهد المعركه . وقد صفّت العربات في الساحة الملكية ومن هناك ذهب الناس مشياً على الاقدام الى مراكز الاستطلاع . وكان يحتشد جمهور غفـير في جادة سانت انطوان . والمستشار العتيد باسكيه كان يرافق الممثلة الشهيرة الانسة كونتا . لم يكن بالامكان مشاهدة ميدان المعترك جلياً ، غير انه كان يتراءى بعض الاشباح من فجوات الاسوار ...

وذلك النهار كان الملك لويس السادس عشر في الصيد . وقد دوّن في مذكرته اليومية الخاصة : ١٤ تموز : لا شيء .

بيد ان عالماً جديداً قد ولد .

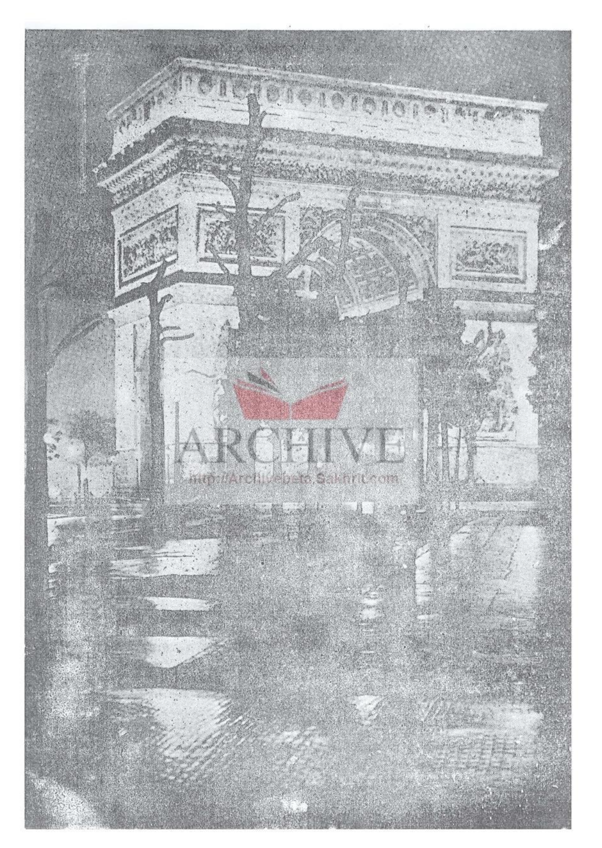
١٤ تموز ١٧٩٠

لم يكن لفرنسا ، عهدَ النظام القديم ، من وحدة سوى تلك الرابطة التي كانت تشد مختلف المقاطعات الى شخص الملك . فكان من ابرز ما أتى الثورة ان احلت محل احترام الملك الشعور الوطني ، اي خلق الوطنية العصرية .

يوم ١٤ تموز ١٧٩٠ احتفل ، بابهة كبرى ، بالاتحاد الوطني لجميع المقاطعات التي آلف بينها بديهياً ، حب الحرية والمساواة .

لقد جرت يومذاك اجمل المظاهرات الثورية واشدها حماسة . وحصلت في الشان د، مارس ، وقد حولها آلاف العمال الى سرادق

يمثل الرسم في الصفحة المقابلة
قوس النصر في باريس



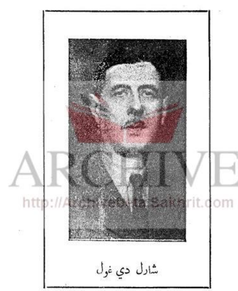
فسيح . وفي وسط هذا الساح الشاسع ، المحاط ببراقي العشب ، قام هيكل الوطن حيث احتفل اسقف اوتون بقداس صارخ امام ٤٠٠٠٠٠ مستمع تهافتوا وفوداً من جميع مقاطعات فرنسا . وكانت كل مقاطعة قد ارسلت ممثليها وبيرقها . وبعد القداس بارك الاسقف البيارق الثلاثة والثمانين ثم تقدم لافاييت باسم الحرس الوطني ورئيس المجلس باسم جميع النواب واقسما يمين الاخلاص للدستور . وقد شارك الملك لويس السادس عشر والملكة وولي العهد ، الشعب في حماسته ولم تك يوماً متدفقة مثلها في ذلك النهار . وكان يجتاح الجموع شعور طري طراوة الربيع ومجنح كالمارسيلياز تخفق لهـا خفقة واحدة قلوب فرنسا .

١٤ تموز في القرن التاسع عشر

في عهد الامبراطورية ثم في عهد إعادة «الملكية» وفي عهد «ملكية تموز» والامبراطورية الثـانية ، لم يحتفل ، طبعاً ، بعيد ١٤ تموز . وقد اختار البونابرتيون عيداً وطنياً يوم ١٥ آب وهو عيد القديس نابليون ، وعاد البوربون الى الاحتفال بالاعياد الكاثوليكية .

وسنة ١٨٩٧ اختار الجمهوريون ١٤ تموز عيداً وطنياً في عهد رئاسة جول غريفي .

ولقد صوت المجلسان على هذا القرار ، تحت انف المحـافظين والملكيين على اختلاف الوانهم ، وكان في ذلك نصر حاسم للجمهورية على الرجعية .


شارل دي غول

وابتداء من سنة ١٨٨٠ كان ١٤ تموز في كل سنة موضوعاً لمظاهرات رسميـة ، وبخاصة لاستعراضات عسكرية . وحتى حرب ١٩١٤ كان يستعرض الجيوش رئيس الجمهورية بباريس في ميدان لونشان . وبعد الحرب العالمية كان الاستعراض يجري عادة في شارع الشانزيليزه . وآخر استعراض كان استعراض ١٤ تموز ١٩٣٩ الخالد الذكرى اذ كانت الجماهير الغفيرة تهتف بحماسة محمومة للجيوش الفرنسية التي كانت تمر امام الرئيس لوبران وامام الملك جورج السادس .

ولكن حيال هذه الاحتفالات الرسمية التي لا تزال الطبقـة المتنكفة تتكلف دونها الحرد ، تجري لمناسبات ١٤ تموز اعيـاد شعبية . ففي كل مدينة وفي كل دسكرة تزدان المنازل بالاعلام وفي الليل ترقص الشوارع والسوح العامة بمن فيها ببادرة بديهية . وتضاء الانوار الاخاذة طيلة ذلك اليوم ليل نهار . وفي باريس مثلا ، في كل حي ، وبخاصة ، في حي الباستيل يرقصون على انغام تتسرب من هنا ومن هنا . والاضواء التي تشق حجب الليل تنطلق من بارك مونسوري وبوت شومون وساحة دوفين القائمة على طرف الجزيرة الباريسية . مشهد لا يمثل الجن اروع منه : ضفاف نهر السين تلتهب بالف جذوة ساطعة ومياهه الحالمة تلتمع بالف لون عجيب .

ويوم ١٤ تموز ، اكثر الاعياد الوطنية شعبية واجزلها ديموقراطية يشعر الفرنسيون ، انىّ كانوا ، بعـد طغيان الهتلرية الفاشيستية ، يشعرون بغمرة حنين تجتـاحهم وتنفذ حتى الصميم . والوطن المزدان بالاعلام المثلثة الالوان والمستحم بالليالي الناعمة المزركشة بأغرب الاضواء ، ذلك الوطن يبـدو الى قلبهم احب .

والفرنسيون الذين تحدوهم ذكرى مجد ١٤ تموز ، تموز ١٩١٩ الذي شهد جوفر وفوش يقودان دفقـة الجيوش الظافرة الى قوس النصر وسط هتافـات تشق الجو ، ان الفرنسيين هؤلاء يرقبون ١٤ تموز قريباً تجتاز فيه جيوش الحرية هي ايضاً ، شوارع باريس المطهرة من الظلم والخيانة . والزعيم الذي لم يقنط ابداً سيستعرض على متن عربة قتال جحافل الجيش الفرنسي الفتي على انغام المارسيلياز الخالدة .

جان دغوليه

الطب عبر العصور

بقلم الدكتور عفيف مفرج
مدرس في القسم الطبي في جامعة بيروت الاميركية

قال المؤرخ العلمي جورج سارتن : الوطني الحقيقي هو الذي يفهم جيداً تاريخ بلاده ، ولا يستطيع العالم ان يقوم بواجباته نحو علمه الا اذا عرف تاريخ ما اختص به وكيفية نشوئه . فقد نشأ علم الطب من عطف الانسان على الانسان ومن الرغبة لمساعدة ذوي الحاجة والمرض او من ابتلوا بالاحزان . فلا نجد هيئة اجتماعية ، مهما كانت عليه من التأخر والانحطاط ، الا وقد حيك بكيانها نوع من مظاهر التطبيب فاصبح هذا مع مرور الزمن عضواً حياً في نظامها . ولقد تلقن الانسان القديم دروسه الاولية في التطبيب بالاختبار عن طريق ما اصابه من الاضرار والآلام وتعدي الحيوانات المفترسة ، فمرت عليه اجيال عديدة احتمل ابانها آلاماً مبرحة قبل ان تمكنت عقليته الضعيفة ومعرفته المحدودة من تقدير الامور وفهم الوضعيات واخذ الاحتياط لدرء الاضرار وتخفيف الآلام . فبالتجربة والاختبار فهم الانسان العلاقة بين السبب والنتيجة وعرف كيف يساعد المريض ثم تجمعت اختباراته هذه رويداً رويداً ونظمت لمعرفة استخدمها صاحبها لاسعاد الانسان واصلاحه .

ولم يكن الطب في العصور الماضية محاذياً في تقدمه للثقافة والفنون الجميلة بل بقي لاحقاً بها حتى اواسط القرن التاسع عشر حيث اتجهت الافكار نحو دراسة العلوم الطبيعية فاستخدمت الجهود لدراسة قامت على التجربة والاختبار فكانت « اليقظة العظيمة » التي على اثرها دخل علم الطب في طوره الجديد .

فيقسم الطب اذاً من الوجهة التاريخية الى ثلاثة اقسام :

١) الطب القديم ٢) والطب المتوسط ٣) والطب الحديث

ويشمل عهد الطب القديم : الطب المصري ، والطب البابلي ، والطب اليوناني .

فامتاز الطب المصري باندماج الطب مع الدين والاعتقاد ان ما يسبب المرض والموت قوة خبيثة خفية يمكن تجنبها ، لانها شيء غير طبيعي ، وما اكثر شبه هذه الفكرة بفكرتنا الحديثة عن الجراثيم وعلاقتها بالمرض . وقد اعتمد المصريون كثيراً على السحر في المداواة ولكنهم ادخلوا بعض الادوية النباتية والمعدنية وذلك حوالي ١٥٠٠ ق.م. واشتهرت مصر بالاختصاصيين في القرن الخامس ق.م. وصرفت جهود عظيمة في درس علم الوقاية فوصل علم الصحة عندهم آنئذ الى مستوى عال جداً فحوت شريعتهم قوانين صحية تشمل ما يخص الفرد والبيت والمدينة كأحدث ما لدينا اليوم .

ومن اهم رسالات الطب البابلي شريعة حامورابي المعروفة ويرجع تاريخها الى الفي سنة ق.م. وهي مجموعة قيمة من الشرائع المدنية والدينية ومعظمها يتعلق بالمهنة الطبية .

وانتهى علم الطب في هذا العهد الى اليونان فتعرفوا الى الطبيعة ودرسوها وبحثوا عن جوهر الامور فوضعوا أساساً متيناً للعلم وسجلوا في صفحات سجل الانسانية الثابت خدمة اعطاها التاريخ ما هي تستحق وقد انبثق الطب عند اليونانيين من الفلسفة والدين . ولا يمكننا ان نبحث عن الطب اليوناني الا ونأتي على ذكر « ابقراط » « اب الطب » الذي ولد سنة ٤٦٠ ق.م. في عصر كان للفلسفة فيه المقام الاول . ولعمري ان ما قاله كامبارتخه في القسم الطبي الابقراطي هو احسن وصف له اذ قال انه « اعلى المثل في الانسانية وتاريخ المدنية » وقال البرت موداي بهذا الصدد ان التحريض على خدمة الانسانية عند اليونان كان اشد وابرز مما هو عليه في عصرنا هذا فما سعوا برجل ادب او رجل علم الا وسألوا عنه « ايدأب على انشاء رجال اصلح؟» وهل يعمل لجعل الحياة أسعد واوفر ؟ فمثلهم الاعلى رفع مستوى الانسانية وتحسين الحياة .

وحرر اليونان الطب من الوهم والسحر وشيدوه على اساس الدرس والتنقيب والمشاهدات الصحية فحازوا على معلومات قيمة في التشريح وعلم الجنين وعلمي النبات والحيوان والفسيولوجيا . وفي سنة ٣٠٠ ق.م. اسسوا مدرسة طبية في الاسكندرية بلغت المختبرات والمكاتب والمستوصفات فيها درجة عالية من الاتقان والترتيب والدقة ، ولعل ابرز صفحة في الطب اليوناني تشريح الانسان ميتاً ودرس الحيوان حياً فكان ان ولجوا بذلك باباً من ابواب علم الطب .

انتهى العصر اليوناني الزاهر وانقضى الطب القديم واطلت العصور الوسطى ، العصور المظلمة في اوروبا . فانحطت المدنية وشحت اضواء العلم لدرجة الانطفاء ، فتبعثر المعروف وطغى الجهل وهبت ريح الفساد فكان الضعف والوهن بين الناس . وبعد

ان فاض سيل العلم مدة نيف والف سنة في سهل المدنية اليونانية الفسيحة ابتدأ يتقلص ويضيع في فوهات العصور الوسطى ولكنه لحسن الحظ، بقيت منه بعض الفروع الصغيرة التي استمر سيلها حتى العصور الوسطى . ومن هذه الفروع الطب البيزنطي الذي نقل الطب اليوناني الى العصور الحديثة عن طريق الامبراطورية الشرقية . انما اهم هذه الفروع على الاطلاق الطب العربي . كتب لاكلارك فقال : ان العالم شاهد ما اثار اشد اعجابه وتقديره واحترامه مرة واحدة في التاريخ ، وذلك في القرن التاسع حينما انتهى العرب من تأسيس مملكتهم الشاسعة وتثبيتها فانكبوا بطابتهم على اكتساب العلم العضو الضعيف في كيان عظمتهم . ففي ختام القرن الثامن للميلاد كان كل ما في حوزة العرب من العلوم ترجمة مؤلف في الطب وبضعة كتب في علم الكيميا ولكن ما كاد القرن التاسع يقارب الانتهاء حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية كل العلوم اليونانية وثقافة الاقدمين ونبغ منهم عدد عظيم من العلماء والمؤلفين . فمنهم « الرازي » امام المؤلفين في الطب ويعد في درجة ابقراط . كان شديد الملاحظة دقيق المشاهدات والتجارب . درس الرازي في مستشفى بغداد العظيم في اواسط القرن التاسع وقدم للطب مؤلفات عديدة قيمة وله يرجع الفضل في التفريق بين الجدري والحصبة .

واعظم طبيب عربي عرف في القرون الوسطى الشيخ الرئيس ابن سينا . بلغت به العلوم العربية قمة مجدها وكان لمؤلفاته تأثيرها العظيم في اوربا . ولد ابن سينا سنة ٩٨٠ ب . م . ومن اهم مؤلفاته « القانون » الذي كان بمثابة « توراة الطب » وقد بقي هذا المؤلف زمناً طويلاً المرجع الاخير وكان يدرس في اوروبا باعتباره اهم جزء في منهاج الدراسة الطبية وقد فاق ابن سينا كلا من ارسطو وجالينوس في دقة المناقشة والبحث

وتسرب الطب العربي الى المغرب بواسطة الصليبيين وعن طريق اسبانيا . وكتب داوسن في كتابه تاريخ الطب قال : ان المدنية الاوروبية او بالاحرى المدنية الغربية كلها مدينة للعرب بميراث حكمة الاقدمين . وقد تميز القرن الثالث عشر بظهور الجامعات ومنها جامعة «مونابليا » التي يرجع سبب شهرتها ونجاحها الى قربها من الحدود الاسبانية حيث كان النفوذ العربي قوياً . اشتهر العرب بنشاطهم وحماستهم ووفرة معرفتهم ومواردهم في طرق المعالجة وكانت اكثر ادويتهم من النباتات وقد ادخلوا عدداً مهماً جداً من الادوية المعدنية الى الصيدلة . وقد كتب احد المؤرخين فقال : ان اعظم مفخرة في القديم ترجع للنبوغ اليوناني واعظم مفخرة في العصور الوسطى ترجع للنبوغ العربي . وزاد على ذلك فقال ان افيد ما كتب واعظم ما ابتكر وانضج ما عرف يرجع الى العرب . فمن القرن الثامن الى الحادي عشر كانت اللغة العربية لغة المدنية وارقى لغة يتداولها بنو الانسان فكان على كل من اراد التعمق بالعلوم ان يتقن اللغة العربية : لغة العلم والثقافة .

وان اشهر بعض مؤرخي العصور الوسطى فكرة مغلوطة ومشوهة عن حالة العلم في ذلك العصر فذلك لانهم حصروا اهتمامهم ومعرفتهم بحالة الغرب وتعاموا عن كل ما يتعلق بالشرق . فبينما كان الغرب يتخبط في دياجير الجهل والانحطاط في تلك العصور كان الشرق قد امتطى اوج المجد والرقي . فقام ابناؤه باعمال هي حتى وقتنا هذا موضع دهشة العالم كله . ومنهم الرازي والغرابي وابن الجزار وابن سينا والغزالي . . .

لا يزال كثير من اهل العلم يعتقد ان هارفي هو الذي كشف الدورة الدموية ودرس حقيقتها في اواسط القرن السابع عشر بيد ان دراسة صفحات التاريخ المهملة كشفت القناع عن حقيقة تنص ان العربي ابن نفيس الذي عاش في القرن الثالث عشر « اي حوالي اربعة قرون قبل هارفي » هو اول من شرح الدورة الدموية . وابن نفيس كان عميد مستشفى المنصورية في القاهرة وقد درس الطب في الشام .

ان درس التاريخ يوضح تماماً ان صرح العلم لم يبنَ الا على التضحيات الغالية وعلى نكران الذات وكل هذا يحتاج لاقصى حد من الشجاعة الادبية والنفسية والفكرية . فكم من الذين لم يقفوا عند حد التضحية المادية بل عرضوا بارواحهم واسترخصوها ليحيوا العدالة والحق والعلم .

ولنرجع قبل ان نتيح لنفسنا التبجح بما وصلنا اليه من رقي العلم وعمق المعرفة في هذا العصر الى ما قال نيوتن وهو على فراش الموت : « لا اعلم تماماً كيف ينظر العالم الي ولكن انا اعرف نفسي فما انا الا كولد صغير يلعب على الشاطيء مأخوذاً بمظهر الاصداف الجميلة بينما يمتد ويعمق امامي اوقيانوس عظيم من الحقيقة التي لم ادركها ولا ازال اجهلها . »

عفيف مفرج

النمو الروحي عند هكسلي

كل بشري وريث ماضيه البعيد ونتاج محيطه وعائلته وبلاده وزمنه . وما ألدوس هكسلي الا دليل حي على صحة هذه النظرية ، وهو من ابرز ما يمكن الاستشهاد به بين كبار الكتاب والفلاسفة الانكليز المعاصرين بهذا الصدد .

واذا ما تصفح اجنبي ما ثلاثة من مؤلفات هكسلي الاولى وهي « الكروم الاصفر » و« الانتيك هاي » و« الغراي امينس» فانه ولا شك يتساءل عن الرابطة الذهنية التي تصل الواحد بالاخر . فالاول منها يذهب الى ان الحياة ليست سوى سلسلة متقطعة من الاعمال لا قيمة خاصة لها بنفسها والاخير يشكك في مقدرة المرء الروحية وفي سيطرتها على مناحي حياته .

وما الدوس هكسلي الا سليل عصر الملكة فكتوريا ورث عنه حب البحث العقلي والثقة التامة بامكانيات العلم ونتائجه كما انه ورث الشك بالروحيات المسيطر على العصر الحديث وما بشرت بـه الاديان وما كتبه فلاسفة العصور السابقة . لقد كان العصر الذي ورث هكسلي مزاياه عصراً كثرت فيه الاختراعات المادية العلمية فسيطرت القيم المادية فيه على الروحية ، فثار على التقاليد والعقائد كما تألم من النتائج التي جر اليها فشل الصلح عام ١٩١٨ .

وفي عام ١٩٢٥ اصبح الدوس هكسلي العالم العلامة والخطيب المصقع والمحدث الفكه والكاتب الذي احبه الجمهور وفضله على غيره في القارتين والسبب في ذلك انعتاقه من قيود عصر الملكة فكتوريا الكتابية وهجره التكلف المصطنع والمواضيع التي تتردد على اقلام الكتاب في كل مناسبة او غير مناسبة يبرزون فيها الى الوجود تلك المثل البشريه الفائقة ويصورون طبقة من طبقات المجتمع دون غيرها . هجر كل هذه الحقائق الجزئية واخذ يصف باخلاص غير مألوف الانحطاط الاخلاقي والروحي في الفترة التي عقبت الحرب الماضية وسبقت الحرب الحاضرة .

لقد افسحت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ المجال في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة لعاطفة طيبة ولمقاصد نبيلة كان بامكان الناس من ذوي الرصانة والحكمة الاستفادة منها لخلق تفاهم دولي عام يكون اساساً وطيداً للسلام العالمي ، ولكننا نعلم ان الفرصة لم تثمر وان البادرة الطيبة لم تستغل . وازدادت الحال سوءاً عام ١٩٢٩ ففقد الناس تلك الروح التي كانت ترجي خطاهم ، روح خلق عالم احسن وأتم ، وهزأ الكثيرون بالنيات الطيبة وجزع الكثيرون لدى رؤيتهم الصدوع تتزايد اتساعاً في صرح التفاهم الانساني فأصبح شعار المرء انا اولاً ولايهمني سواي !

تلك كانت برهة تقوضت فيهـا الام في السامية ورجع المرء ابانها الى انانيته الخاصة يائساً قانطاً من الوصول الى ما تصبو اليه البشرية من وئام وثقة متبادلة . فأظهر هكسلي عندها كتابين يرمزان الى تلك الحالة الروحية البائسة اولها اسماه « افعل ماتشاء » والآخر « بيلاطس الهزاء » محاولاً البحث عن الحقيقة ضالة العصور المنشودة في ثنايا تلك التطورات الغريبة فأدى به تحريه الى نتيجة سداها الشؤم ولحمتها اليأس ، وهكذا امست الحقيقة في عرفه ضرباً من الخيالات والتجارب النفسية التي لا قيمة لها البتة .

ومما ساعده على التوصل الى هذه الفكرة تتبعه لاراء « فرويد وجنك وادلر » البسيكولوجية ، تلك البحوث التي يمتاز بها القرن العشرون والتي حملت البعض على نعته بالجيل البسيكولوجي .

فانزوى عن العالم ليدرسه عن كثب ولكن ذكاءه الموروث ومقدرته الفائقة لم يرضيا له هذا الانزواء ورأى انه لا مناص له من سبر غور المجتمع في ميدان المجتمع نفسه لا خارجه فكانت نتيجة كل ذلك كتابه الذي اسماه « بريف نيوورلد » .

في هذا الكتاب الحافل بالخيال استرسل الدوس هكسلي في سرد الفكر التي كانت ترمي الى التفكك في العالم الغربي سرداً علمياً دقيقاً فذهب الى ان غاية مجهودات البشر التوصل الى ابراز شخصية بشرية تكون في حرز منيع وحمى امين من ثورات العواطف

ومن التحيز الى جهة دون سواها ومن العنف والبغضاء والآلام الطبيعية والمرض والفناء . ولقد ابرز نظريته هذه في مجموعة غنية من التفاصيل استغوت البعض ونفرت الآخرين .

ومنذ عام ١٩٣٢ تغلبت الروح الاخلاقية في الدوس هكسلي على روح الادب والكتابة فبدأ يتوصل الى نتائج ملاحظاته العلمية الدقيقة وسادت عليه روحية الاصلاح الخلقي وهكذا فازت اخيراً عوامل الوراثة فيه وارجعته الى ما تأصل فيه منها .

فألف عام ١٩٣٧ كتاباً اسماه « الغاية والواسطة » يبحث فيه المدنية الاخلاقية والغايات التي توخاها اعظم مفكري البشر من كل الاجناس لاسعاد العالم ، عالماً من اختباراته الواسعة ومن حوادث عصره ان الشخصية المثالية البشرية ليست الرجل المادي الذي يكفيه ان تتوفر لديه الحاجيات والكماليات المادية ليكون سعيداً انما هو ذلك الرجل الذي بشرت به الرسل والانبياء وكبار المفكرين ، الرجل الذي يستطيع التحرر من القيود الارضية والابتعاد عن المطامع والنزاع المادي، وللتوصل الى هذا يجب على البشر ان يتذرعوا باسباب التربية الصحيحة ، والارادة البشرية القوية يزجي خطاها ويثير حميتها غاية خارجية عنها .

وهكذا نرى ان هكسلي الذي بدأ حياته في معالم الشك واللا ادرية قاده بحثه اخيراً ، وادت به ملاحظاته الدقيقة الواسعة الى الانخراط في صفوف كبار رجال البشر ومفكريهم الذين كانوا ولا يزالون يؤمنون ويبشرون بان المادة وحدها تقتل نفسها بنفسها وان الروحيات واذا شئت لها بعبارة ابسط فالاخلاق انما هي الاساس المعول عليه والغاية التي يسعى البشر وسط آلام هائلة واضطرابات كونية الى التوصل اليها .

وبالاختصار اننا اذا ما رمنا تتبع النمو الروحي في هكسلي فاننا نراه يتطور تطوراً اثرت فيه العوامل الوراثية والحوادث العالمية فبدأ بالنظر الى الانسان كمخلوق لا اهمية له ، او كعضو حقير في آلة كبيرة هائلة ، الى ان ادى به بحثه وتفكيره الى نبذ هذه الخرافة جانباً والاعتقاد الراسخ الوطيد باهمية الفرد الوحيدة في العالم ، اهمية لا تستطيع خنقها اية سلطة حكومية او سياسية ، او تضحي بها في سبيل غايات اخرى .



الفدية

لبودلير

لكل رجل حقلان
باطن تربتها خصبُ غني
فعليه ، لفداء نفسه
ان يحرث هذه التربة ويحييها بعول عقله

فهو لا يجني مهما حفر من الورد
ولا يحصد مهما ضؤل من السنابل
الا اذا ثابر على سقايتها
بالدموع السخينة من جبينه الشاحب

حقل الفن وحقل الحب
فاذا جاء يوم الدينونة الرهيب
ونصب ميزان العدل
وجب على ذلك الرجل ليفوز بعطف الديان

ان يريه اهراء ملأى من الحصائد
وازهاراً
اشكالها والوانها
ترضي الملائكة

ي . غ

*) Poème de Baudelaire ; La Rançon

ضياع ...

لعلي محمد شلق

مشى معي . . .

له جناحان على مقلتي ... وآخرٌ يرعش في اضلعي
ومنقر التفّ على متولي ... صمتاً ، وأرخاه لدى مسمعي
يموّج الاحلام في خاطري ... زرقاً على اوهامها لا تعي
وفي دروب الليل يغفو النهى ... ويستفيق الحلم المطلع
أطيب ما في العمر حلم إذا ... نبّهته استرخى ولم يسمع

*

كم عابر في البدء لذّ الرؤى ... له انتهاء الاحمق المدعي
يقفز بالاوهام من مهيعٍ ... حاو الاراجيح الى مهيع
وتعتريه فجأة وثبةٌ ... تحول الروض الى بلقع
فتخنق الالحان في صمتها ... وتحرق الالوان في المدمع

*

ولي مع الفجر ، ربيب المنى ... أوليته نبت الحشا يرتعي
دغدغته بين مهود الهوى ... وفي ظلال الخاطر الممرع
راح ولم يترك بها ريشة ... اورفّةً في غصن طيبع
وطار لم يخلف لحوناً على ... ثغر ولا ظلّاً على منبع
وكان ملء النفس ملء الدنى ... ملءُ الغيوب الزرق ملءُ «معي»
والآن في نفسي فراغ المدى ... كالقبر مطوياً على مصرع
مشى معي بين ذهول السنا ... وتاه في الليل ولم يرجع

*

واكثر الاحلام وجه الثرى ... معشيراً في افق الهجّع
وان صفا فهو باعماقنا ... ينزع بالارث الى منزع
فهو الغد المحجوب لكنه ... من قبل مبصوماً على الاصبع

*

والحلم إن حققت رجع صدىً ... لموجة المبصَر والمسمَع
ينداح في النفس الى عمقها ... وفي الكرى يطفو على مشرع
وتارةً يجتاز آمالنا ... وهو لدى الاذهان لم يامع
يجلو لك الآتي كومض السنا ... أو عابر للغيب مستسرع
هذا دليل الله في عالم ... يوجه الفكر الى المبدع

قصة

الحاج سعسع في عرس عنترة !

بقلم رشاد المغربي دارغوث

خرج الحاج ابو سعد من الحرب الماضية ينوء باعباء الستين ، وبثروة ضخمة اتاحت له سكنى دار ابتاعها في حي من احياء المدينة الارستقراطية .

ولكن ابو سعد لم يشأ أن يبدل في زيه شيئاً . فقد فتح الله عليه ببركة ذلك الزي المتواضع في حين مات آلاف الناس جوعاً . وآلاف آخرون ذاقوا مرارة العري وآلام الامراض والاسقام . فهو ما برح يرتدي سراويله الحلبية وصدارته الكشميرية يشدها على وسطه بشملة من الصوف الاسود منذ كان بواباً في كتاب الشيخ معتوق حتى صار بائعاً في المدرسة المذكورة وامسى غنياً من اغنياء البلدة وبالتالي وجيهاً من وجهائها المحترمين .

وهو لا يذكر انه نزع هذه الاثواب عن جسده الا في ايام مناسك الحج عقيب انتهاء الحرب الكونية .

فقد شعر ابو سعد ان من واجبه الديني وقد اغدق الله عليه نعمه ان يحج إلى بيته الحرام مسقطاً بذلك ذنوبه ما ظهر منها وما استتر . وشاء ان يستصحب معه ام سعد التقية الورعة وادى الزوجان ذلك الفرض على اهون سبيل . وعاد الحاج ابو سعد معتماً مرخياً لحيته لا تفارق انامله سبحة ابتاعها في بطحاء مكة ، يمشي بين الناس غاضاً من بصره متمتماً صلوات لا ينقطع سيلها .

وكنت صبياً في ذلك العهد اجتمع الى رفاقي من الصبيان في نزهات الى النهر المجاور او في ساحات البلدة ايام الاعياد . فيحدثني رفاقي حديث بواب كان في مدرستهم يبيعهم الترمس والقضامة والبزر : عشر حبات من الترمس او عشر حبات من القضامة ومثلها من البزر يقبض عليها الحاج بيده فتبرز من بين اصابعه وهو يسارع الى القائها في جيب الولد متناولا منه باليد الاخرى متليكاً او متليكين مردداً كلمته التي اشتق منها لقبه :

— صع ... صع ... صحتين !

او يقول آخر :

— « كنت اتغدى في المدرسة ، عند جزع شجرة في الملعب . فجاء الحاج سع ... سع ... وقال لي : انني جائع يا ولدي . هل تبادلني رغيفك بهذه الترمسات اللذيذة ؟ »

كنت اسمع هذه الاحاديث وسواها فلا يخطر لي ببال — وانا غريب عن تلك البلدة جئتها يافعاً بعيد الحرب مع اهلي النازحين عن فلسطين — لم يكن يخطر لي ببال ان الحاج سعسع هو الحاج ابو سعد نفسه جارنا الذي اسمعه في كل صباح يتلو القرآن ويقيم الصلاة ويتعبد الله بحرارة وخشوع .

حتى كان مساء ايقظنا فيه من غفوتنا صراخ تعالى في منزل الجار اعقبه بكاء وشهيق وانين .

وكان للحاج ولدان احدهما دركي جن واقتيد منذ عام الى مستشفى العصفورية مكبلاً بالحديد . وآخر ورث مهنة ابيه في المدرسة التي انقلبت كلية كبرى في تطورها السريع . فقلنا اذا كان المجنون هو الذي يثير هذه الجلبة والضوضاء في سكون الليل ، وقد انقضى أكثر من ساعة على أذان العشاء ، فلا بد ان يكون اخوه قد اتخذ الاحتياطات للحيلولة بينه وبين امه وابيه ، وضربها كما كان يفعل .

غير اننا لم نتبين اول وهلة عمر الصارخ المعربد من خلال نبراته التي تتجاوب في القاعة الرحيبة الملاصقة لمنزلنا . فلم نشك لحظة في ان لصاً او مجرماً دخل على الحاج والحاجة بيتهما منتهزاً فرصة انفرادهما ليسلبهما ما تبقى لهما من المال بعد الحج وشراء هذه الدار . والناس في البلدة مجمعون على القول بان ثروة الحاج ابو سعد النقدية لا تقل عن خمس مئة ليرة ذهباً . فاذا كان قد انفق منها خمسين في سبيل اداء الفريضة وابتاع الدار بثنتين ، ففي حوزته لا شك مثل ذلك عداً .

غير ان جميع الجيران اذ يتحدثون في سهراتهم واجتماعاتهم عن ثروة هذا الغني الجديد لا يستطيعون ان يعينوا المكان الذي خبأها فيه : اهو في الجدار كما يزعم اقرباء الحاجة ام سعد ، ام تحت بلاط (الساحة) كما يقول اخو الحاج الفقير المعدم ، ام في (كمره) الغليظ تحت الشملة كما يتقول آخرون .

وقد اتيح لي ان ادخل منزل الحاج ابو سعد مرة كابن جيران لآخذ طابتي التي وقعت عن سطحنا الى ساحة داره المكشوفة . فلم اجد في البيت خزانة تصلح لاخفاء مثل هذه الثروة (الضخمة). ولم اشعر ان احدى بلاطات الساحة متقلقلة ترن تحت الاقدام كما ترن بلاطات الكنوز في حكايات مربيتنا .

وانقضت فترة سكن فيها الصراخ والعويل . ثم ارتفع صوت الحاج يهدر وهو يقول :

– انت طالق حتى يتزوج عنتر !

فيضحك والدي ضحكة رنانة وتبتسم امي بسمة حائرة تتساءل بها عن معنى الكلام الذي سمعته وعما لعنترة وزواجه من دخل في خلاف ينشب بين الحاج والحاجة .

وتقول امرأة الحاج ابو سعد وهي تشرق بدمعها :

– « يا ظالم ! طلقتني عشر مرات حتى الان اكراماً لعنتر ! الله يجازيك ويجازي الذي كان السبب !

ويقول ابي شارحاً وهو يعود ادراجه الى غرفة نومه :

– هذا الحاج يستمع في كل ليلة الى قصص « الحكواتي » في مقهى « البحر » . . . وعنترة يحب عبلة . والظاهر ان الحكواتي وقف عندما رفض ابوها ان يزوجها منه .

ويعلو صوت الحاج مرة ثانية وهو يقول :

– علي الطلاق بالثلاثة بالاربعة بالخمسة اذا ما تزوّج عنتر عبلة

وتئن الحاجه ام سعد بدورها :

– « يا ظالم ! اين دينك وصلاتك وصومك . . . شو ذنبي انا حتى تطلقني ؟

ويتابع الحاج ابو سعد متمثلا :

« قال الراوي : وجاء عنتر كأنه الاسد الغضنفر ، فضربه ضربة على رأسه، شقه حتى تكة لباسه . . قال الراوي . . . ولما رأى عبلة كأنها العروس شق عنترة من صدره القميص ومشى اليها مشية الخندريس . . . ثم صرخ وزمجر وقال الله اكبر . . . »

وظل الحاج ابو سعد يروي لزوجته (المطلقة) ما علق بذاكرته من اقوال « الحكواتي » ابو لسانين وما استطاع ان يفهمه من قصة العبد البطل وابنة عمه الحرة الناعمة ، والحاجة تبكي وتنتحب ونحن في فراشنا نحاول ان نستجيب داعي النعاس، فينبهنا صوت يرتفع فجأة من بيت الجار العزيز، او لبطة في الخاصرة من اخ صغير تعود ان ينام الى جانبي تارة والى جانب اختي تارة ، حتى صاح الديك وانقضى الهزيع الاول من الليل .

لم تشرق شمس اليوم التالي حتى شاع الخبر في اوساط الجيران جميعهم . فقد رأت ام احمد الحاجة ام سعد متسترة بنقاب ابيض داخل بيتها. فخشيت اول الامر ان تكون قد فقدت احد اقاربها فلبست عليه الحداد . ولما سألت ام احمد الحاجة ام سعد عن سر ذلك اجابتها وهي تتضاحك :

– طلقني الحاج . . . حتى يتزوج عنتر !

وراحت أم أحمد تعزي جارتها برثاء مصطنع وهي التي سمعت الحاجة تعلن شماتتها بها لاشهر خلت عندما طلقها ابو احمد، بسبب كثرة الملح في طعام اعدته له . ولم تمض دقائق حتى انتقل الخبر الى ام علي ومنها الى ام حسين ومنها الى الست عيوش . وتكفلت هذه الاخيرة بنشره في المدينة .

فلم تكن تمر ذاك الصباح في احدى (الحارات) حتى ترى رأسين يطلان من كوتين ، ويتهامسان بالخبر الجديد الرائع . وما جاء المساء حتى احاط بالحاج ابو سعد جميع عشرائه وجلسائه في مقهى البحر : هذا يهنئه معجباً وذاك يلومه معنفاً والحاج يردد :

– والله لا اقرب ام سعد حتى ينال عنتر وطره ! هو عنتر والا اثنين ! »

فيزداد المعجبون حماسة ويشعرون بما يتحسسه الرجل يخون مقدساته ووطنه في حضرة وطني صادق راح يمجد الاخلاص ويعبد ذلك الوطن . ولكنه شعور غامض لا يستقر في النفس غير لحظات تنصرف الجماعة بعدها الى مج النارجيلات واحتساء القهوة والشاي وهم مستوون على كراسيهم في جاسة مسترخية، لايحركون سوى طرابيشهم او لباداتهم (بشرخاناتها) بين الحين والحين : يدفعون بها الى الامام تارة حتى تشرف على بطونهم مائلة كانها برج (بيزا) او تطل على اقفيتهم في وضع افقي ، تعجب معه كيف تستقر تلك العمامات على تلك الرؤوس الحليقة الفارغة .

والنارجيلات (تكركر) باستمرار، وصاحب المقهى يروح ويجيء في ثيابه الرثة القذرة في حركة دائمة لا يقف الا (ليستر) رأس نارجيلة او ليقدمها الى زبون جديد .

وقد ضاق الحاج ابو سعد هذه الليلة ذرعاً بجلسائه . فهذا يتحدث عما طبخ من طعام وذاك عما اشترى من متاع وذلك عن مات او ولد وآخرون عمن خطب وتزوج . والجميع في مرح يؤذي الحاج في مسائه هذا ويقبض صدره . فيتمنى ان لو يصمت الكل ويريحوه من جعجعتهم ، او ان تؤذن العشاء فينصرفوا عنه ويتركوه لاحلامه .

فالحاج في واد وهؤلاء الناس في واد . انه ينتقل مع عنترة من غابة الى غابة ،يصرع الاسود ويصارع الافاعي . ومن حي الى حي ينازل الابطال ويقارع الرجال . فيضرب بالسيف رأس هذا فيحطمه في لمحة بصر ويرمي بالنبل عين ذاك فيفقأها ويرسل رمحه الى بطن ذلك فيعلق به كاللحمة بالسفود (السيخ) . وتتردد في اذنيه اقوال « الحكواتي » : قال الراوي فضربه ضربة على رأسه شقته حتى تكة لباسه . . .

وتتزاحم تلك الصور والالواح في مخيلة الحاج متتابعة متلاحمة . وتدوي هذه الاقوال في اذنيه دوي النحل او هدير البحر . فيمسك برمحه هو الآخر يهزه في وجه خصوم عنترة واعدائه . حتى اذا تكاثروا عليه واجتمعوا يسدون في وجهه كل منفذ، قذفهم الحاج بكل ما لعنترة من قوة خارقة فتحطمت النارجيلة بين اقدام جلسائه وتطايرت شظاياها (وبصات) نارها على اثوابهم وطرابيشهم، ووقف الحاج ملوحاً (بناربيجه) صارخاً :

— ولك ! اجا عنتر ، اجا السبع الغضنفر ، اجا الموت الاصفر، اجا الحاج سعسع !

ويعلو في المقهى ضجيج وضوضاء وتختلط القهقهات باسئلة الاستفهام ترسلها الافواه من كل ناحية،ويسارع صاحب المقهى الى تهدئة الحاج وتطييب خاطره متنازلا عن ثمن النارجيلة المحطمة بقوله :

— « فداك يا حاج ! وفدا عنتر !

وجاء « الحكواتي » في موعده المعتاد بعد صلاة العشا وجلس على اريكته وسط المقهى ،واخذ الزبائن يتجمعون حوله في حلقات يستمعون اليه والى كركرة نارجيلاتهم وطقطقة (المكسرات) يتسلى بها بعض الحضور والحاج سعسع على رأس الجماعة يعلن اعجابه تارة بقوله :

— الله اكبر ! الله اكبر !

ويغضب تارة اخرى مغمغماً :

— عليهم يا عنتر !

والحكواتي يتشدق بالقصة تشدقاً يخيل اليك معه انه ابو اربعة ألسن لا لسانين فحسب . ثم يضرب بعصاه المنبر فيرتج المقهى بكامله وتهتز اجنحة السامعين فيصرخون بصوت واحد :

— هلا هلا يا عنتر يا ابو الفوارس !

وكأن ابو لسانين قد شاء ان يطيل عذاب الحاجة ام سعد . فما كان يصل الى العقدة التي اراد الرواة ان يتم عندها زواج عنترة الفرسان بعبلة الحسان حتى يعود الى رواية الاشعار منشداً ما تعج به ذاكرته من ابيات يستقيم بعضها ولا يستقيم البعض الآخر ، ثم يعقبها بازجال ما حفظ او ارتجل في خليط لا تتبين معه وحدة للقصة او هدفاً معيناً للموضوع .

وفي الليلة الثالثة افقنا هذه المرة على جلبة تعلو من ناحية الجار الحاج ابو سعد، واهازيج ترددها افواه كثيرة وتكبيرات واناشيد تلوكها ألسن لا تحسن النطق بها . ثم يتلو ذلك زغاريد من نساء الحي وقد اجتمعن في نوافذهن المطلة على (الحارة) خلف (الشعريات) . واذا بصوت يعلو تلك الضوضاء صريحاً مفهوم الاداء يقول :

= مبارك يا عريس . . . تتهنا ياحاج سعسع !

فعلمنا ان عنترة قد تزوج عبلة . وايقنت ان الحاج ابوسعد هو الحاج سعسع . ونمت تلك الليلة افكر : كيف يتزوج الرجل بالمرأة !»

رشاد المغربي دارغوث

حيرة

•

يوسف الخال

•

تهيم بي وتنفر ، فأرتجي وأصبرُ
لعلها تدرك ان الحبّ لا يستتر
... ومطلبي منها غد يُطوى ، وامس يُنشر
لنا على بسمته ، انىّ تهادت أثر
يضمنا معاً ، ويأتي بالمحال ، العمُر
فتنبت الرحمة في قسوته ، وتُزهر

•

يا حيرتي فيما تبوح لي ، وفيما تضمر
زاغت بيَ الدنيا ، وقلبي ضاع عنه الخبر
تلفه الحيرة في اوهامها ، فيعثر
ويرتمي والحلم في يقظته يندثر

•

مالي اذرّ النفس في موطئها وانثر
وقبلتي الشمس ، ومرمى ناظريّ القمر
ولي على الذروة من دنياي حلم انور
يملع النزوة من حبي اذا احتقر
ويخنق الدمعة إن حنّ اليها المحجرُ

•

يا منية حسبتها أطهر مما تظهر
وخلت ان النفح في اجوائها معطر ..
غيبي . فلا احفل ، بعد اليوم ، او اصطبر

بيروت والبيروتيون
في عصر ابراهيم باشا المصري
١٨٣٢ - ١٨٤١

بقلم شفيق طباره

الفصل العاشر

التجارة – الصناعة – الجالية الاجنبية

امتازت بيروت في ذلك العصر عن المدن بطابعها التجاري نظراً وقعها الجغرافي ولمرفأها الصالح لدخول السفن التجارية ولكثرة السلع التي كانت تمر بها حاملة اصناف التجارات في طريقها الى انحاء المشرق والمغرب . فكان الوافد اليها يجتاز ازقة لا يزيد اتساعها على ثلاثة امتار تلتوي تارة نحو اليمين وتارة صوب اليسار وتحتجب في بعض الامكنة عن عين الشمس وراء سقائف ، ازقة ثقل فيها الهواء وكثرت فيها الاخاديد تكتنفها عن الجنبين مبان متلاصقة تتشابه في صغر منافذها وقلتها وفي حجم ابوابها ووضاعة مظهرها . ولم يكن يرى فيها فندق ولا مطعم وانما كان فيها خانات كثيرة خان الشوني وخان البربير وخان التجار وخان الدباغه وخان بسترس وخان حمزه وخان الملاحه وغيرها ينزلها المسافرون بدوابهم . وكانت بناية الخان يومئذ على شكل مربع يتألف من طابقين خصص الطابق الاول منهما لايواء دواب النازلين وتكوّن الطابق الثاني من رواق طويل امام صف من الحجرات المتقابلة اعدت للمتسببين الغرباء والباعة الجائلين من متوسطي الحال لقاء اجرة يومية وقدرها اربع نحاسات . اما اعيان التجار فكانوا ينزلون منزلا كريماً في بيوت عملائهم . وكانت غرف الخان خالية من الاثاث يتولى المسافر فرشها بما يحمله عادة في الاسفار من متاع وما امتعته الا سجادة صغيرة يبسطها على الارض وينام عليها وعباءة يتدثر بها وخرج يتخذ له من عينه الواحدة وسادة بينما يكون في العين الثانية جبن ابيض وزعتر وزيتون وقديد وما الى ذلك مما كان اعد زاداً للطريق . وكانت الحوانيت صغيرة ترتفع عن الارض متراً او بعض المتر ويرى البائعون في وسطها جالسين متربعين وقد تراكمت حولهم السلع اكداساً فوق الرفوف يعرضون سلعهم على الشاري وهو قائم بالباب . وكان لاصناف التجارات سوق خاصة فكان هناك سوق القطن وسوق الغزل وسوق الخضرة وسوق القباقيب وسوق الترابيج وسوق العطارين وسوق الحدادين وسوق الدباغين وسوق النجارين وسوق البزركان وسوق البياطرة وسوق الحياكين وميناء القمح وميناء البصل وميناء الخشب وميناء البطيخ وغيرها . وكان لكل سوق رجل يقوم بحل المشاكل التي تقع عادة بين البائعين والمشترين وكانوا ينعتونه باسم الصناعة او التجارة التي يتعاطاها فيقولون شيخ الحدادين وشيخ الحلاقين وشيخ العطارين وشيخ النجارين وما الى ذلك . واما معاملاتهم في مبايعاتهم فانهم كانوا يعقدون البيع والشراء بالكلام ويصدقون فلم يحتاجوا الى السندات وقد بقيت الوثائق (الحجج) بلا تسجيل في المحاكم الى ان امر داود باشا اول المتصرفين فسجلت في سنة ١٨٦٢ ثم صدر الامر بالرهن في المحاكم سنة ١٨٦٩ وكانوا يؤرخون بالهجرة الى العصر الذي نكتب عنه فشاع التاريخ الميلادي في المعاملات .

وكان اهل بيروت يعتمدون في ثروتهم على التجارة والصناعة واهم ما عرفته من تجارتهم التبغ والزيت والصابون وبيع الشرانق والحرير المحلول فكانوا يجمعونه شلالا ضمن بالات ويحملون منه في المواسم كميات وفيرة الى مصر ومرسيليا . اما الصناعة فقد اشتهروا باحترافهم حرفاً خاصة اهمها صناعة حل الشرانق لصنع الحرير المسمى (البلدي) وكان يحل على الطريقة العربية القديمة الى ان اسس في سنة ١٨٣٦ اول معمل لحل الحرير على الطريقة المستعملة في اوروبا بجي الدحداح الكونت دي لا فرته Comte de la Ferté والكونت دي لامون Comte de Lemont ثم انشأ في سنة ١٨٣٨ السادات نقولا وجورج بورطاليس معملا استحضروا له من اوربا ناظراً وعدداً من الصناع الماهرين فاخذ فريق من اهل الوطن عن العمال الاجانب اساوب التحليل الافرنجي فقاموا بتشغيلها

وازدادت فيما بعد معامل الحرير انتشاراً في لبنان كله حتى بلغت فيما بعد ١٥٤ معملا .

وراجت يومئذ صناعة حياكة وتطريز الحرير والصوف وشعر الماعز يحيكون من اقمشتها ملبوساتهم ويصدرون من هذه المنسوجات الى مصر وبلاد الاناضول وراجت صناعة الدانتيلا والصباغة والدباغة والسكافة والمعامل الخزفية والحدادة ومعامل القوارب والسفن الشراعية . والتبغ من المحاصيل التي كانت تعد اوفر غلة بعد غلة الحرير ويقدرون محصول هذا الصنف بثلاثمائة الف اقة تقريباً يصدرون منه الى الخارج ولا سيما مصر . ومن اهم مزروعات ضواحي بيروت يومئذ زراعة التوت لتربية دود القز والصبير يستعمل كسياجات للبساتين وكعلف للمواشي ويزرعون كذلك العنب والخضر والقصب والغزار للسياجات ويستعملون قضبانها لتربية القز ومن اشهر الاشجار الزنزلخت والمشمش واللوز والموز .

وكانت بيروت تضم جاليات اجنبية اغلب افرادها من التجار وجلهم من الفرنسيين واهل البندقية (فينيسيا) يستوردون سلع البلاد الغربية ويستعيضون عنها بخيرات البلاد الشرقية واهمها الحرير . وكانت الدول توفد اليها قناصلها ليراعوا شؤون هذه الجاليات ومصالحهم التجارية . وكان في المدينة قناصل الدول الكبرى يومئذ قنصل دولة فرنسا وانكلترا وبروسيا والدنمارك واسبانيا والنمسا واليونان والبندقية . وكان القنصل يتمتع بامتيازات واسعة فكان عند خروجه من منزله يمشي امامه الياور او (القواص) يفسح له الطريق . وكان من عادة الناس عند رؤيتهم القنصل ان يقفوا عند جانبي الطريق ويحيوه تأدباً او (يضربون التملي) اي السلام على حد تعبيرهم يومذاك . وكان الاجانب يتميزون عن اهل البلد بثيابهم التي تتألف من تنورة بيضاء تصل الى الركبة وبرنيطة واسعة من المخمل وصدرية ملونة . وقد فضّل الاوربيون بيروت على سائر المدن الساحلية لحسن موقعها الجغرافي والتجاري اضف الى هذا ان البيروتي موصوف بسلامة الذوق وهو بطبعه متسامح يألف الغرباء ويحلهم مكاناً علياً من اجل هذا لم يشعر الغريب بالوحشة التي يشعر بها عادة في بلدان أخرى فخالط الاهلين واتخذ منهم اصدقاء . ومما لا شك فيه ان هذه العوامل حببت الى الاوربيين السكنى في المدينة وأدى هذا التقارب من المنافع ان توسع افق النشاط التجاري وتبدلت اساليب المعيشة وتطور نظام الحياة الاجتماعية وبرزت بيروت شيئاً فشيئاً من ظلام العصور الوسطى الى نور النهضة الحديثة .

الفصل الحادي عشر

ضواحي المدينة . الابراج . المواصلات

في ذلك العصر كان يحف بسور بيروت بساتين مغروسة باشجار التوت ويجلل الروابي زرع وشجر يمتد صفوفاً الى شاطئ البحر . فكان الخارج من باب السراي الشرقي يرى الى اليسار مقبرة الغرباء، ومقبرة المصلى ومقبرة الخارجه في الموضع الذي يشغله اليوم المطعم الفرنسي ويشاهد الى اليمين برجاً يقوم في موضع سراي الحكومة الحالية (السراي الصغير) التي بناها في سنة ١٨٨٣ — ١٨٨٤ م بشاره افندي الدب مهندس ولاية بيروت بعد انهدام سراي فخر الدين في سنة ١٨٨٢ .

ويرى ساحة البرج[1] روضة غناء تحنو عليها الاشجار الباسقة وكانت تعرف باسم بستان فخر الدين نسبة الى الامير فخر الدين المعني وسميت تلك الضاحية بالبرج نسبة الى برج الكشاف الذي كان قائماً مقام مقهى البارزيانا في الزاوية الشمالية من شارع غورو . وقد دب يومئذ الخراب الى البرج ولم يكن منه غير درجات حجرية . واختار هذا البرج في الزمن السالف الامير فخر الدين المعني فكان يجلس في منظرته المطلة على الاراضي الخصبة الواقعة على الشاطئ تؤنسه مشاهد البساتين الخضراء وزرقة البحر وبياض جبل صنين المكلل بالثلج تلك التي يبهج مرآها القلوب ويستهوي الالباب .

وكان تجاه باب يعقوب وازاء باب ابي النصر مقهى بلدي مبني من مغروسات القصب كدوالي العنب يخرج اليه المولعون بمناظر الطبيعة في كثير من الاوقات يتنسمون الهواء الطلق ويتنزهون في ظلال شجر الجميز ثم تتمادى المسالك في ممار ضيقة بين البساتين الى المحجر الصحي حيث يلوح من هناك برج الخضر وفي جانبه جامع الخضر القائم تحت قبة بيضاء . واذا حوّل بصره نحو الجنوب الشرقي رأى هضاب مار متر التي سحر جمالها لامرتين الشاعر الفرنسي حين تنقل في ارجائها ثم يليها الى الجنوب الغربي سهل اخضر زاهر بديع يقع في آخره (رأس النبع) . وكان يومئذ قرية صغيرة تبعد مشياً ربع ساعة عن المدينة وتبدو من هناك غابة الصنوبر الفتانة . وامامها ميدان فسيح هو ميدان السباق الحالي حيث قصر المندوب السامي الفرنسي وكان يعرف باسم (المرمح) تقصده افواج هواة الخيل

(١) اطلق على هذه الساحة يوم رابط فيها الجيش الفرنسي بعتاده : Place des Canons في سنة ١٨٦٠ . وتعرف اليوم بساحة الشهداء لان العثمانيين نصبوا فيها المشانق لبعض الرجال السياسيين في سنة ١٩١٦ . وانشأت لهم فيها حكومة لبنان التمثال القائم في وقتنا الحاضر .

الغواة ليتباروا طراداً ورمياً بالجريد . وللخيل في ذلك العصر عز ودلال وكان اصحابها على سنة ابائهم يعنون بتزيين سروجها بقطع من الفضة ويحلون رؤوسها بتيجان واكاليل من الريش .

ولقد اشاد لامارتين ايضاً بمدح العاب الفروسية وجمال موقع الميدان ووصفه وصفاً بديعاً وقد اضطجع هناك على العشب الزاهر وتفيأ ظلال الصنوبر في جو شائق صاف رقيق واستمع الى حفيف الغصون وتغريد الطيور فاوحى اليه المشهد الجميل لذة التأمل والنجوى فعده من احسن اماكن العالم جاذبية وسحراً . واذا جال الطرف ناحية البحر رأى المحاجر الواقعة في محلتي مار الياس والمصيطبة يقطع منها الحجارة الكبيرة فتحملها الجمال الى حيث كان الاهلون يبنون بيوتهم وقد بنى الفينيقيون باحجارها من قديم الزمان المباني العظيمة

اما المصيطبه فقد ذكر صالح بن يحيي في (تاريخ بيروت) ما نصه : «وعمر بيدمر الخوارزمي في ظاهر بيروت مسطبة (المصيطبة وعرفت به الان (اي الى عهد المؤلف في القرن التاسع للهجرة) . وكانت المراكب تصنع بها على بعد من البحر . وكان لمحلة المسطبة شأن فكان السلاطين والامراء اذا قدموا بيروت وهي على ما كانت عليه من الضيق والبساطة في العمران ينزلون مع اتباعهم واجنادهم في محلة المسطبة ويخيّمون فيها واختاروها على سواها لارتفاعها واعتدال هوائها» وقد جاء ما يدل على ذلك عند الكلام على اسماعيل بن هلال من الاشرفية وهي المحلة المعروفة في بيروت ولعلها سميت بذلك نسبة الى الملك الاشرف المشار اليه ففي صفحة ١٦٩ : «واسماعيل المذكور كان من اعيان الناس وكان من ذوي اليسار . حكي عنه ان السلطان نزل على المصطبة التي كانت معروفة بمنزلة السلاطين قبالة الاشرفية فعمل له اسماعيل ضيافة فكان صبوح البكرة مائة خروف مشوي فظن السلطان انه السماط . ثم بعد ساعة او ساعتين حضر السماط الكبير فتعجب السلطان ورسم له بخلعة» اه

وكان يعلو الروابي ابراج تقوم مقام القلاع المنيعة في حماية البلد ومن اعاليها كان الحراس يرقبون حركات العدو . منها : برج ابي حيدر وتعرف المحلة اليوم باسمه . وبرج العريس وكان غربي البسطة التحتا وقيل انه كان يتصل بمغارة تحت الارض نافذة الى المزرعة . ثم برج الحصن وكان في محلة ميناء الحصن التي تسميها العامة خطأ (ميناء الحسن) . وبرج الفنار وكان على الصخور في مدخل الميناء وبرج دندن وكان رسوماً طامسة واطلالاً دارسة لم يبق منه يومئذ الا حيطانه . ويرجح انه كان قرب (كركول العبد) في طريق الشام . واذا خرج من باب يعقوب رأى البرج الجديد على ربوة ارتفاعها ٣١ متراً عن السور الواقعة قبالة الكنيسة الانجيلية . واذا خرج من باب السمطية الغربي ومال ذات اليمين رأى شجرة جميز كبيرة تظلل سبيل ماء امام مقبرة السمطية[1] . وعلى مسافة مقبرة اللاتين والكاثوليك القائمتين في منتهى جادة الفرنسيين واذا تقدم نحو الغرب شاهد رأس بيروت آهلاً ببعض الدروز وهم — كما يقدرون — سلالة مشايخ آل تلحوق الذين هبطوا اليه سنة ١١٤٤م . وكانوا هناك يعنون بحرث الحقول مزارع ابائهم واجدادهم العامرة بدوالي العنب والخضار والاشجار المثمرة واشهرها التين . وكان تين رأس بيروت شديد الحلاوة صافي اللون دقيق القشر يجففه اهل بيروت في الشمس ويعاونه في قوارير لتباع في مصر وغيرها من البلاد .

وكانت بيروت تتصل بمدينتي صيدا وطرابلس وببعض قرى الجبل بطريق مقفرة موحشه لا تتسع الا لمرور رجل او رجلين ويربطها بدمشق طريق تصعد شعباً بين الهضاب وتتخللها قرى وضياع قليلة الى خان الدخان شرق بلدة عاليه لتصل الى عين صوفر ثم تهبط الى البناع وتفضي الى زبدل بالقرب من شتورة ثم تمتد الى خان ميساون لتنتهي الى دمشق .

وكانت الخانات تتعاقب على جانبي الطريق مرحلة بعد مرحلة تقوم على هضبات صخريه بجوار العيون والينابيع وخان الجبل يتألف من حوش فسيح للدواب يحوطه من ثلاث جهات حائط علوه متران او ثلاثة ويقوم من الجهة الرابعة غرف على جانبي الباب هي منازل للمسافرين وعلى باب كل خان ساقية للسبيل وحانوت فيه ما يحتاج اليه المسافر .

وكانت القوافل تسير في ايام معيّنه من بيروت باذن من المتسلم وقد وكلّ امر حراستها الى خفراء اقوياء لهم جعالة من الحكومة حفظاً لاموال الناس من قطاع الطريق . وكانت القوافل تصل الى دمشق في ثلاثة او اربعة ايام .

شفيق طباره

---

(١) كانت السمطيه معروفة في القرن الرابع عشر للميلاد بالصنطيه وقد جاء ذكرها في (تاريخ بيروت) لصالح بن يحى قال في صفحة **٥٦** : «ونزل الفرنج من الشواني (جمع شونه وهي السفينة الحربية) الى البر في مكان يسمى الصنطيه غربي البلد في الرابعة من النهار وتملكوا البلد ونهبوا واحرقوا الدار التي لنا على البحر (يعني لامراء كل بحتر) والسوق الغربية من الميناء » اه . وقيل ان الصنطيه كانت قديماً مقبرة للمسيحيين وان اسمها الصنطيه كلمة مشتقة من (صنطا) اي مقدسة :

تقوى

بقلم عبد الله العلايلي

كان يوماً (١) ازدهت فيه دمشق بكل أفانينها وبرزت فيه بكل فتونها، هذا اليوم الذي أطل معه الربيع في ابتسامة الأزهار وعبق ابتسامها في الهواء السابح، مرصعاً بخيوط الشمس المتقنعة بقناع من المزن الرقيق الشفاف .

كان عادةً عند ناسها استقبالُ الربيع بكل أشياء الأنس والحفاوة، وبكل ما توحيه المتعة المستبشرة، فكان يخيل للمشاهد أنهم نسوا حتى الزمان في وجودهم، ثم لم يذكروا إلا ما هم فيه من أسباب اللهو العابث البري . فيقبلون عليه بلهفة الظامي على الينبوع وينطلقون في مدى كل مغنى نضير، وينتثرون انتثار الطير في كل فضاء .

وكان هذا اليوم كأنه في حس الفلك ساعة من لاوعي الزمن، يسبح منها في عربدة حالمة او أحلام معربدة . وعزيز على الحي الشاعر، أن تطيف به هذه الساعة من لاوعي الزمان، ولا يغرق معها في خضم النسيان والانطلاق من قيود الوعي والفكر في الحياة .

في هذا اليوم كان «معاوية» في قصره المشيد وفي الجناح الغارق بالمتع، يقطف مع جمع من حاشيته زنبقة زهو اليوم . وكان «بُديح» مولى عبد الله بن جعفر يؤنسهم بطرائف أخباره وملح نوادره، فانتهى به الحديث الى اخبار الاغريق وعجائب ما شاهد بينهم . وكان فيما قال :

كأن نساءهم خلقن من طبيعة الجمال إن لم تكن فكرة الجمال صيغت من طبيعتهن، بل لعلهن في بحر الجمال لآلئه . فقد افتنّ فيهن إبداع الخلق حداً أبرزهن مُثُلاً ناطقة بالفن، وحوراً صيغت من زبد الخلد الحائم عند بارقات الرمال والشواطىء، فأية تقاطيع في أي وجه ؟ ؟ . ودار به ناظره كالذي تذكر صبابة قديمة طبع عليها الفشل، فأرسل آهة طويلة اختنقت في حلقه قبل نهايتها . . .

قال بعض من حضر : لكأن لك بينهن ذكرى طرية بوقعها على قلبك وإن قدم بها العهد . . فراح يحاول الاخفاء على شتي مذاهبه وأساليبه، ولكن كان في عينيه ما يفصح بكل خبر قلبه . فقد غدتا تغفيان تحت هباءة كثيفة من الذهول، حتى ليخيل للناظر في مقلتيه أنهما جمدتا في غير حياة، لولا بصيص رفيع الخيوط كانتا ترسلانه قلقاً، على أنه مال يتخافت فيما توهت به عيناه من دمع رقيق، لما يؤذن له فينحدر .

وبينا هم على ترسلهم وتبسطهم، استأذن الحاجب وأعلم الملك ان كبير النخاسين أتى بجارية فائقة (يود عرضها)، فقد كان متعارفاً انه يُبدأ بالقصر فيعرض عليه ما يهبط من الغلمان، فأذن الملك واجريت مراسيم الدخول .

وكان عجب الحضور كبيراً حينما مثلت بينهم، فهي تتمتع بأكبر قسط من جمال الرؤى حتى لقد خيل للكثيرين منهم أنهم يبصرون منظراً من جمال فن خيالي، يجيء من دونه كل ما في طاقة الحياة من فن الجمال .

هبطت على جمعهم هبوط البرءَة على جماعة الطير في الغاب مع ظلام المساء، فاهتزت أعصابهم كالأوتار، ونطقت بلحن الحنين الموّاج فحامت شاخصة في مدى بدوات هذا الابداع .

وكان في هذا الذهول الذي عراهم، ما جعل أحداً لا يفطن الى ما استبد ببديح من اضطراب وما تملكه من تلهف، كما لم يفطن احد ايضاً الى ما ساورها من خلجات عنيفة كظمتها فعربدت على قمم مقاتيها ناطقة باللحظ الوثاب .

كان لناظر ان يقدر ان بديحاً اكثرهم أخذاً بها لانه اكثر تذوقاً للجمال، واما ان يقدر انها بالذات نفس فاتنته التي احتفظ بها

(١) هو فصل من كتاب حياة الحسين عرض وقصص، والقصة وقفت عليها في جزء صغير بعنوان فضائل معاوية بن أبي سفيان، ومؤلفه ابو القاسم عبد الله السقطي . وهو مخطوط في حجم كراس من القطع الصغير ولا تزيد صفحاته على الاربعين . وقد عثرت عليه عرضاً في مكتبة المرحوم الشيخ عبد الرحمن سلام ببيروت، وهو يرتقي بخطه في أقل تقدير الى حدود القرن السادس الهجري، وليست عليه سماعات . وهذه القصة التي اجرينا على أساسها الفصل مروية عند السقطي بهذا السند قال (حدث ابن الاعرابي عن المبرد عن المازني قال قال الاصمعي : عرضت على معاوية جارية وساق الخبر بتمامه)

ذكرى ندية بالغرام ، وعرضت لنفسه منذ هنيهة في بعض الحديث فهذا ما لم يكن يقع في مذهب الخاطر المرسل .

ولقد قطع هـدأة وجوم الانجذاب ،معاوية بقوله مخاطباً كبير النخاسين : لشدّما ادهشتنا حوراؤك : فمن اين هي ؟ (وما اسمها ؟)

قال الرجل : (اسمها هوى) .. فانبعث بسر بن أرطاة انبعاثاً يقول :

(هي والله كاسمها هوى) ، تخفض منه وترفع ، وتطيـل به وتقصر ، وتنشر منه وتطوي .

قال عمرو بن العاص : وماذا يكون الهوى ان لم تكنه ؟..

وكان بديع قد ضبط أرشية قلبه الفائر بالذكرى والحب والآلام والبعد والقرب . فقد شعر الآن فقط انها نأت عنه والى الابد ، اما عرضت على الملك ونالت استحسانه وحظيت باعجابه ، فهو لا محالة سيضمها الى جملة وصائف القصر وولائده ، فكان في حس نفسه كأنه يعض على جانب قلبه بمضغه .

كيف لم يبتعثه القدر الى الخروج منذ هنيهة ويتلقاها عرضاً ، فقد كان يحول بينها وبين الدخول ويحظى بهـا لنفسه ، وهو الذي ظل يتمنى حياته منها لحظة لقاء . لقد مده القدر بساعة لقاء عفواً ، ولكن فيها مرارة النكاية والتاويع ، ففاضت نفسه حسرات .

وانقطع بهم عارض الحديث فعاد النخاس الى مقاله :

وهي إغريقية المنبت والنجار ، ترقى الى انها اعدت لتكون كاهنة في هيكل ربة الجمال عندهم . والاغريق يتحرون في مثلها ، ان تكون نسقاً في الملامح والتقـاطيع والشكل مع إلاهتهم ، لتبرز لهم في المواسم والاعيـاد وكأن ربة الجمال برزت لهم او تقمصتها ، فانتهت بها صروف الاقدار الى حيث ترى .

والعجب — ايها الامير — انها ذات فلسفة في الحياة ، رغبت بها عن متع الحياة والقتها في مثل الزهد .

قال معاوية ناشطاً : كيف تقول ؟

قال : نعم هو ما اقول لك .. فضمها الى قصره ، وقد بذل فيها (مائة الف درهم) . وواصل : لقد صدق والله بديع فيما مضى يحدثكم به من جمال الاغريق .. ولكن لم تبعـد الوصائف بها حتى استوى وكان متكئاً ، فقال :

(لمن تصلح هذه الجارية) ؟.. قال عمرو بن العاص :

من(سوى امير المؤمنين تصلح له)؟. وكذلك قال آخر وآخر ، ومعاوية يقول لا ويبتسم كالذي يعابيهم . وبعـد ان اخذ منهم التشوف مأخذه وتزايد بهم التلهف ، قال لهم معاوية :

انها بروحيتها وكمالها لا تصلح إلا للحسين (فانه احق بها لما له من الشرف ، ولما كان قد شجر بيننا وبين ابيه).. فارتسمت على وجه الحضور آثار مشاعر مختلفة متناقضة ، امـا بديع فكان محلاً لانواع شتى من الشعور ، فقـد انشرح واكتأب وطرب وحزن في درجة واحدة من الانفعال .

انه أمل ان يكون موضعاً لسقوط هـذا الندى ، وتمنى وهو الظامىء بالهوى ، ان تكون ريه هذه الغادة المترعة بذوب الحب وطَلّ الغرام والتي هي غادة قلبه ، ولكن خاب به أمله فاكتأب

بيد انه مشى في حواشي هـذا الاكتئاب عنده إنشراح ، مصدره ان الحسين وهو المنتشي برحيق الهيكل والمستغرق في التأمل الالهي والطافح بخير الانسان ، لن يبخل بها عليه . وإن لم يكن فلا اقل من ان مقامها اضحى صنو مقامه في المدينة بين آل ابي طالب هو يتشهى ان تكون قريبة منه وكفى ، انـه يريدها متعة قلب وقد سقط على امنيته منها .

ففار في نفسه ينبوع بشر ضحك معه ضحكاً خفياً في الخيال ، وزاد به حتى انفجر يضحك كالمعربد الغرد ، مما جعـل الحضور يرمقونه باستغراب ، وطاف على السنتهم : ما بال بديع ؟. ولكن قطعه عليهم بقوله :

انها ستكون مفاجأة لذيذة الوقع على الحسين ، سيما وقد كانت كاهنة في هيكل ربة الجمال ، وهو الحالم الهائم بالجمال المفعم به ضمير الوجود .

بعد ما تناولتها الوصائف بالتطرية والهندمة المتفقة مع أساوب القصر ، برزت كالربة التي تحلم والبحيرة تصطفق بامواجها الرقيقـة عند الشاطىء .

كانت ساحرة الفتنة مغرية الجمال ، ولكنهـا تُرى مع ذلك كالهائمة في ضميرها . فلم تكن بمنظرها تثير أصداء الشهوات بل تنشر احلاماً نشوى من احلام الروح ، تلقي الناظر قسراً في مثل المحراب الذي يشيع في القلب مثل معنى صلاة خاشعة .

وهذا اللون من الجمال غير محبب الا للهائمين في دنيا ضمائرهم ، واما الآخرون الذين يهيمون في دنيا أعصابهم وينطلقون في مدى رسومها ، فانهم ينفرون من هذا الجمال الذي يغريهم بمعنى مبهم لا يتذوقونه ، ثم لا يحرك اي وتر من اوتار قيثارة خيالهم المركبـة تركيباً لا تنطق معه بمثل ريشة هذا الجمال ، او تنطق بنغمات متنافرة توحي بالمرارة .

***

امضت (في القصر اربعين يوماً) ، كانت لا تفتأ خلالها تفكر في مصادفة هذا اللقاء مع بديح وهي التي باتت في يأس من لقائه ، وقد باعدت بينهما اسباب وأزمان .

وذهبت تناجي نفسها : ويح بديح ، إنه لم يزل في مثل يقظة عواطفه ليلة لقائنا للمرة الاولى بين اروقة هيكل (فينوس) . ويح بديح ، لقد كابد في سبيلي كثيراً وتجرع امر الغصص والآلام من اجلي ، ثم تناهى به بعاد يعتصر عليه قلبه ، فكم ذا يقاسي؟

يا ما الذ وقفة انتظار في لحظات توله وتلهف كنت اقفها عند بعض اعمدة الهيكل ، وبديح مقبل تحت رداء الليل يُمتعني بنفسه في جلوة قلب مغرم ، أضفت عليه خلوة الاحلام . يا ما اقدس تلك الرعشات ، واعذب وقعها . اني لاذكر تلك الليلة وقد هبت فيها الاعاصير ولعبت في مسرحها العاصفة ، وكانت الآفاق تزأر زئيراً مخيفاً ، والغمام يهبط مع جنح الظلام كثيفاً كثيفاً كأنه شاء ان يطمر الارض بما هو مترع فيها من الحياة والاحياء . وكانت الشُطآن تفور في مثل جيشان الجافئات ، والرمال تتعالى وتتعانق في شكل الاقواس ، وذعرت فيها حتى طيور الليل فانكفأت منكمشة في المغاور والحفائر ، وقد امسكت حتى الركز من نأمتها .

ولكم تمنيت وانا واقفة عند عمود الرواق الداخلي ، انه لا يأتي في ليلة بركان السماء . وبينا انا واجفة مخطوفة اللب بالتخوف والترقب أحرق قلبي للربة قرباناً كي تحوطه وترعاه ، اذا هو مقبل كأنما رمى به الاعصار في العراء وتمخضت عنه العاصفة ووضعته في التيار الدائر في جنون .

اسرعت اليه اعتنقته دون الهيكل وهو يلفني كتلة طفولة حذراً عليّ من طيش هذا الليل ، وفي الهيكل استند الى صدري كالذي خرج من المعركة ظافراً ، يجدد حياته في حس مخاوق جديد .

قلت له وانا ادغدغ جبهته، واعبث بشعره المُتَطلل (١) الذي كمنت فيه اصابع العاصفة : لماذا ركوبك الاعصار الى محراب حبنا ؟ لكأنك من عدم مبالاتك محب فوق بركان .. فابتسم واخذ وجهي بين كفيه يقول :

أأعرف انك تصلين في محراب الحب ولا اسعى اليك في اجنحة الطير ، كي اشاركك ترنيمة الهوى وترتيلة الهيام ، انك لتقسين عليّ في الظن بي .

(١) من قول العرب تطلل اي اتخذ شكل الاطلال

إيه غادة احلامي . ليست العاصفة الرعوب هي التي تشهدين في حواشي هذا الليل ، وانما هي عاصفة القلب وقد فارت فيه فائرة التياع، بل تلك بجنب هذه زغردات وابتسامات وزقزقات ارسلتها الطير مع السحر . قسماً لو حالت دونك ارض زرعت فيها كل البراكين ، لتخطيتها اليك مغتبطاً مسروراً .. فقلت معترضة : لا تبالغ ، فان هذا بين البشر لا يكون وانما هو من طباع الربات والارباب .. فذهب ضاحكاً يقص عليّ قصة ذلك العاشق الكردي (١) ، الذي طلبت منه فتاة هواه وردة حمراء واخرى صفراء . وكانت حديقة الورود في يقظة حراس اشداء وفي عين اسود غضاب ، ويفصل دونها نهر يعج بالتيارات . فانطلق العاشق في مدى رغبتها يخوض النهر ، وتقلب في حديقة الورود يبحث عن الوردة الحمراء فلم يجدها . فعاد مبلل الثياب يقول لها مبتهجاً : لقد اتيتك بهما .. فانه كان يحمل في يده الوردة الصفراء ، واما الوردة الحمراء فكان يحملها في صدره ثغرة فوارة بالدماء ، فقد اصاب سهم الحراس قلبه فشطره .

قلت له متفجعة : ايكون ذلك حقاً ؟؟ قال : ليس هو بعيداً عنك ، الا فامتحني في العاشق الكردي . اقول لك وانا اعني ما اقول ، لو تحدتني كل ارباب الاولمب كما تحدت (هرقل) لقاومتها في سبيلك ساخراً بقوتها .. فاخذت عليه سبيل الاستمرار وقلت له :

بحتي لا تجدف على الارباب ، وأيضاً في هيكل ربة الجمال ، اني اخاف عليك .. فانقلب يقهقه قائلا : لماذا لا تفكرين انك انت الربة الحقيقية ، واما فينوس فربة خيالية اثيرية فقدت حرارتها ، وبابرازك كاهنة في هيكلها يعدون وجودها البارد في الخيال ، بحرارة انت تنشرينها وتوزعينها .. فوضعت يدي متولهة على فمه اقول : لا . لا اريد ان اسمع منك تجديفاً . آه لقد فجعتني ، أأنت ايضاً يا بديح تتكلم بالهرطقات ؟؟ لقد كنت في ذلك الحين مؤمنة بقدرة الربات والارباب وانا ارغب على من احب بأن يكون مثلي رأياً وايماناً ، لكنني عرفت بعد ذلك ان بديحاً كان اعمق مني معرفة وأهدى تفكيراً .

لقد كنت مفعمة بالايمان ، فصوره لي حديثه بصورة منكرة توحي بالشر . فانقبضت عنه وذعرت منه ، وبالغ بي هذا الذعر فكرهته ، وعدت بعد ذلك اتحاشاه وانفر منه ؛ اود ان لا اراه . وكنت اسائل نفسي ايكون بديح مجدفاً ؟ . وهو في نفسي صورة

(١) قطعة ادبية من اجود ادب الاكراد .

من ملاك • كلا • لا اود ان اخنق بيدي بديحاً العائش في خيالي ، اود ان لا تتشوه صورته في نفسي ، وانا اذا اجتمعت الى بديح ستمتد يده الى تشويه ما استوى في خيالي عنه ، ولكن بديحاً الخيالي محبب اليّ الحب كله واتمنى ان اظل متمتعة به منتشية بمثاليته • فكان طبيعياً انْ كنت اتوارى ، كلما تعرض لي بعد ذلك وهذا ما يحدث اذا لم يكن الايمان فكرة في النفس ، بل كان عقدة في الروح او ازمة في الوجدان • وكلما كان ايمان المرء عقدة في الروح تكون عواطفه قاصرة على من يشاركه هذا الايمان دون سواه ، بل يتعدى ذلك فتساوره نزغات تتحرك معها كراهيته ويتحرك معها تعصبه • اما الفكر المجرد فانه لا يعرف تعصباً ، وانما التعصب عقد في مكان الوجدان من النفس ، فهي تتحكم بالعواطف على لونها • وكلما كان الفكر اكثر ضيقاً والوجدان اكبر عقداً ، فهناك يوجد شر انواع التعصب ، وعنده يستضيق المرء حتى بوجود من لا يشاركونه عقيدة الايمان • ولا شك ان هذا بعض من طبيعة الانانية في الانسان ، فاذا كان في التدين فكرة ايمان فهناك تدين صحيح على نهج انساني ، واما اذا كان في التدين انانية ايمان فهناك اخطر شكل من اشكال اللاإنسانية النكراء •

فنزعة التدين الصحيحة هي التي تجعلنا نحكم الايمان بالفكر دون العكس ، الذي يتولد من ازمة نفس ويولد ازمة نفس وحياة ايضاً • اما الفكر فليس يقبل عقدة بل من وظيفته ان يحل العقد في النفس الانسانية والحياة والوجود ، وهو اذا قبل العقد احياناً فانما يقبلها في ضرب من الامتحان وفي ضروب خفية من الارتياب • فالفكر يرادف الامتحان او النقد المجرد ، وتقدم الانسان معناه تقدمه في الفكر الذي ينتج حل اكبر مقدار من العقد • وفي ظني اليوم ان تقدم الفكر ليس معناه القدرة او السعة في التفكير ، بل معناه الكفاءة على التفكير بدون اعصاب اي بتجرد للفكر ، ومن ثم لا نحب او نكره ولا يضر بنا القرب او البعد بل نمحي فكرتها ، ثم لا نتصرف بعواطفنا تبعاً لها •

ليتني كنت اعرف هذا من قبل ، إذن لما جافيته ونفرت منه وظللنا في متعة الحب الخالدة •• لقد رأى بديح مني ذلك الاعراض فلم يطق الحياة واجتواها ، فذهب على وجهه لا ادري اين وقعت به يد الاقدار؟• ولقد احسست والله بعد ما فقدته بالاسى والاسى الفظيع ، فطلبت السلوة في الشرود بالمعرفة ، فاندفعت الى فكر جديد • فهجرت الهيكل وابتدأت رحلتي وراءه من نقطة هائمة ، فانتهت بي قراصنة البحر الى حيث مكاني ، وكان قدَراً ماتعاً فقد رأيت بديحاً •••

* * *

بعد مقام قصير في البلاط (حملت الى المدينة مشفوعة باموال عظيمة وهدايا كثيرة ، وزود معاوية رئيس الركب كتابه الى الحسين جاء فيه : ان الملك اشترى جارية فاعجبته فآثرك بها) •• ادخلت على الحسين وهو منصرف سابح في مدى تأملاته ، وكان في الجو الذي يحيط فوقه ، ما اعاد اليها ذكرى الهيكل ونقلها الى مثل المحراب • وزاد بها هذا الشعور فاعتقدت يقيناً انها لم تعد في شيء مما يتصل بدنيا الناس ، لحفتها سكينة وافتها هدأة الروح ، وغرقت في خضم بعيد القرار من الابديات ، وكانت سكرى بما يتساقط الى مسمعها من نغمات مسحورة تشعر بها فى مدى روحها عذبة ندية •

ظلت في هدأة طويلة لم تفق منها الا صوت الحسين يستقبل رئيس الركب ، وراح هذا يخبره خبرها •

قال عليها في ابتسامة مواسية يقول : اظني بك – وانت جديدة عهد بالاغتراب – انك موحَشَة النفس ، وبودي ان تتدارك كل حال تأنسين بها وتطمئنين •

قالت هوى : كنت خليقة بالوحشة في غير مكانك ، ولكنني وانا فيه فاني جديرة باطمئنان في النفس والضمير •• وراح يرفه عنها ويعاطيها اسباب الحديث على شتى مذاهبه والوانه ، وكان فيما قال لها : الا تروين (شيئاً من شعر العرب وادبهم) •• قالت : بلى •• وكانت لم تزل في أثارة من صوفيتها المفعمة ، فأنشدته ابياتا جاء بينها :

انت نعم المتاع لو كنت تبقى غير ان لا بقاء للانسان

وما هو الا ان فاض في قلبه ينبوع حنان تندت معه مقلتاه وتبلور فيهما مثل الدمع والا فهو عصارة شعور بعبق التقوى • ثم قال :

(اذهبي فانت حرة ، وما بعث به معاوية معك فهو لك) ، على انك عندي ابداً مثل كريمة عزيزة المكان في هوى ذويها ••

* * *

وبينا هي في غبطتها ، أقبل بديح يستأذن عليه فقد أوفده مولاه عبد الله بن جعفر الى دعوة الحسين • ولكنه ما مثل بين يديه حتى راى مهاة قلبه مرة اخرى ، بيد انه في هذه المرة كان

كآبة

◆

عقدتْ هُدْبَها على حُلُمٍ ميت ، ولفّتْ آلامها بابتسامه
ولوتْ جيدَها ، كما اَوَتْ العُنُقَ ، على مرهف الشفار ، حمامه
ووراء الضلوع ، تنتحبُ الروحُ انكساراً ، ذبيحةً مستضامه
ماتت الذكرياتُ ، الاّ ظلالاً ، حَضَنَتْ قلبَها ، ولمّتْ حطامه
حشرجتْ لا تعي ، ومالت عليه ، تمسح الجرحَ ، او تعدّ سهامه
يبسَ الدمعُ في الجفونِ ، وغض النظرُ الميتُ ، لا يرى ما أمامه
غام . وانشقّت الكآبةُ عن آهٍ . واغفتْ على الشفاه ابتسامه
ايهِ دنياي .. ثمّ خطّت بعينيها على صفحةِ الفضاء علامه ؟

وصفي قرنفلي — حمص

اعنف شعوراً بها . فقد جددت عهد هواه في دمشق ، وقد احالت قلبه الذي كان كشاو تناهى في حب ضامر قديم ، الى قلب جديد حياة انصب فيه جديد حب ما فصل عنه امس وغد . فتاهت حروف كلماته في فمه ، وقسراً وجم في ذهول ، وتداركها مثل شعوره وغصة قلبه فانخطف لونها . والحسين يرى ويشهد ، فاطرق اطراقة مائجة بالايحاء ، مر في خاطره معها ان بديحاً ينتهي الى مثل غربتها ، فغير بعيد ان تكون ذات هوى به وضرب الزمن بينهما ، فباعدهما قدر عاد في دورة اخرى يضمهما ، وجدير بي ان اكون خط النهاية في دورة القدر المبهمة . فالتفت الى بديح وقال :

كنت على اهبة ان استقدمك اليّ يا بديح ، فسقطت من نفسي على موعد . انت عندي مثل كريم عزيز ، وهي عندي مثل .. فاستخف ببديح عاصف فرحة كبرى ، حتى كأنه دفع الى الخلد من نافذة بعد ان حيل بينه وبين الباب طويلاً .

ولم يرَ الا مكباً على يد الحسين يقبلها في موضع تلاقى عليه ثغران ، ثغره وثغرها ..

عبد الله العلايلي

اثر اوغيست كونت في الاتجاهات العالمية

بقلم نسيم يزبك

لا تنتظروا مني ان ارسم لكم صورة كاملة الملامح جامعة الاوصاف عن النابغة الفرنسي اوغيست كونت فيما وضع من مؤلفات واحدث من تأثيرات ، واسمحوا لي ان اذكر لكم على سبيل التقريب والمقارنة صورة بارعة الرموز يرجع عهدها الى ما قبل القرون الوسطى . تتمثل فيها الفلسفة جالسة على عرشها وقد جلس سقراط وافلاطون الى قدميها ، ومن صدرها تتدفق الانهر السبعة للفنون الحرة التي تبتدىء بدائرة الاخلاق وتنتهي بأفق النجوم . وامامنا الان في القرن العشرين صورة اخرى يظهر فيها اوغيست كونت جالساً في مرتبة اعاظم مفكري العالم يعالج الفروع السبعة للمعرفة التي تبتدأ بالحساب وتنتهي بالاجتماع وتنعكس جميعها في ديانة عالمية جعل نفسه كاهنها الاكبر .

فالانهر السبعة للفنون الحرة والفروع السبعة للمعرفة البشرية قد جمع بينها هذا العبقري الفرنسي ونشرها على العالم آيات بينات .

واذا القينا نظرة على ما ظهر في فرنسا خلال القرن التاسع عشر من آراء وافكار وطرائق نجد ان تعاليم اوغيست كونت هي التعاليم الوحيدة التي تجاوزت الحدود في تلك الفترة الى اوروبا بل الى العالم . فمثلت الفكر الفرنسي اكمل تمثيل واظهرت روح ذلك العصر في اوضح الاشكال فلا غرابة مع ذلك ان يقول اميل فاكيه في واضع العقيدة الايجابية انه زارع الافكار والمحرك الاكبر في عصره للقوى الذهنية واعظم مفكر عرفته فرنسا منذ عهد « ديكارت » ان في هذا القول تعبيراً لحقيقة الرجل الذي غمر القرن التاسع عشر بنظرياته وافكاره بحيث لا يكاد الباحث يخطو خطوة في ميدان الفكر الحديث حتى يتبين آثار اوغيست كونت مترددة في اساليب وصيغ مختلفة وفي هذا الصدد قال الكاتب الاشهر ليني بريل بدقة الرسام الشاعر ان تأثيرات كونت ممتزجة بمجاري التفكير العامة امتزاجاً دقيقاً قد لا يلحظه الناظر كما لا يلحظ الهواء الذي يتنشقه .

لقد حاول اوغيست كونت معادلة ناجحة في ان يكون عالمياً، بكل ما في هذه الكلمة من معان ومهمات فانفرد عمن سبقه وعاصره من علماء وكتاب وبحاثين بافكار ومبادىء جعلته في ارفع طبقة من طبقات المفكرين ولا ريب في ان الاثر الذي احدثه في القارة الاوروبية وفي العالم يرتبط باتجاهات تفكيره واسس تعاليمه فقد جعل الانسانية مصدراً لفروع المعرفة السبعة التي عني بجمعها على قواعد التسلسل والمقارنة والتمييز لتلتقي جميعها في دائرة واحدة دائرة الحياة الاجتماعية وتنتهي الى ديانة انسانيه تحكم الشعور والافكار والافعال في ظل نظام اجتماعي تقرأ في بعض عناوينه الاخاء كمبدأ والنظام كأساس والتقدم كغاية والتربية كوسيلة وان ديانة كهذه باستنادها الى الحياة المشتركة تبعث على الانسجام بين مصالح الفرد والجماعة وعلى التأليف بين المدارك ضمن شرائع لا تخرج عن حدود اليقينيات من محسوس ومعقول . فلا بد مع هذا كله من احترام الحريات الروحية كسواها ومن وجود سلطة روحية تساند السلطة السياسية في تدعيم النظام الاخلاقي من غير ان يحصل اختلاط بين السلطتين فالعقيدة الايجابية هذه بوجوهها العلمية والسياسية والدينية تستطيع ان تكون على رأي واضعها هادية العالم كما يستطيع علماؤها ان يكونوا قادة العالم وهداته وان ينتظموا جماعات وينتشروا في الارض جاعلين من باريس لهم عاصمة روحانيــة وهو لم يتردد في ان يعرض على امراء السياسة والدين اعتناق دعوته .

ينعقد الاجماع على ان هذه التعاليم قد بعثت في القرن التاسع عشر تيارات مختلفة فيها اختصار لما جاء من قبل وتمهيد لما ظهر من بعد وقد امتدت من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين بعواملها ومؤثراتها وانتقلت من فرنسا الى اوروبا ومن اوروبا الى العالم وتبوأت مكانها بين اعظم الشرائع المسيطرة على الاجيال وانارت سبل البحث امام الكتاب والمفكرين وهكذا ترى ان كاود

برنار في ابحاثه الفزيولوجية قد استوحى اوغيست كونت وكذلك العالم الآخر امبير فيما كتبه عن فلسفة العلوم، اما فيستل دي كولانج ورينان وتين فقد تأثروا كسواهم بذلك الفكر الجبار المسيطر وكان لهذه التعاليم اثر ظاهر في اتجاهات مشاهير رجال الفكر في الخارج كستيورت مل ودروين وسبنسر فان عقيدة الايجابية هي التي اعطت لعلم الاجتماع صيغاً علمية عالمية واظهرت من خلال الحقائق العامة درجة التفاعل والارتباط بين فروع السياسة والاقتصاد والاجتماع فكان من نتيجة ذلك ان تأسست في المانيا المدرسة المعروفة بالتاريخية واكبر الظن انها تأسست على يد هيقل. ومما لا ريب فيه انها اعتمدت نظريات كونت في توجيه الحركات الاقتصادية السياسية والتطور الاجتماعي وفي هذا الصدد يقول الكاتب الايطالي شياتارلا ان الدراسات الاقتصادية ذات الطابع السياسي والاجتماعي في المانيا مدينة لتعاليم اوغيست كونت وكان من نتيجة ذلك ايضاً ان قامت في ايطاليا ذاتها حركة اخرى مشابهة في السياسة والاجتماع والاقتصاد اعانتها على تدعيم كيانها الناشيء. ولم تقف دعوة الايجابية عند هذه الحدود بل تخطتها الى هولندا وبلجيكا وسكندينافيا حيث تركت اثراً بالغاً في ميادين الفكر والعمل وتسربت الى آسيا فكان لها اصداؤها المستحبة في تركيا وانتقلت الى الشرق الاقصى فكان لها في الصين وفي اليابان انصار واتباع من الفئة المنورة رفعوا عاليها في ما اعترض بلادهم من تحول وانقلاب. والواقع ان تأثيراتها في هذه الامم قد اختلفت باختلاف البيئات ومبلغ استعدادها للتطور ودرجة حاجتها الى التجدد والاصلاح واذا القينا نظرة اخرى على العالم الجديد نجد ان اميركا الجنوبية قد تأثرت تأثراً ملحوظاً بالتعاليم ذاتها فالولايات المتحدة البرازيلية كانت من اسبق تلك الدول او اسبقهم للاخذ بهذه المبادىء فقد رصعت علم بلادها بهذه الآية من ايات اوغيست كونت نظام وتقدم وهي شعار طريقته السياسية وسطرت في دستورها نصوصاً تحترم الحرية الروحية كسواها على اساس التفريق بين السلطة النظرية والسلطة العملية والتمييز بين الروحية والزمنية وهكذا نرى تعاليم كونت حلقة متينة من حلقات الاتصال بين جزء من آسيا وجزء من الشرق الاقصى وجزء ثالث من العالم الجديد. نراها عامة جامعة بمؤثراتها في الجانب الاكبر من الانسانية شاملة شمول الفروع السبعة للمعرفة البشرية وقد انعكست في جميع مظاهر التفكير حتى في دوحات الشعر والقصة وتسربت الى اندية العلم ومجامعه حتى الى مدارس الحقوق حيث نرى بعض رجال الشرع من مثل العلامة ديكوى ينتقد باسم الايجابية النظريات المختلفة في تعريف فكرة الحق والواجب.

قلما نشهد على صفحات التاريخ القديم والحديث عالماً كاوغيست كونت تمكن من ان يملك على رجال الفكر مشاعرهم الى هذا الحد ومن ان يجمع في أساليب تفكيره مسائل العلم باوسع معانيها ومبانيها ووسائل الدين بتفاصيلها. كلما نرى رجلا بلغ به حب الاحاطة والشمول الى ان سمى نفسه كاهن الانسانية الاكبر فاصطنع مذبحاً يقيم عليه الصلاة ويقدم الضحايا هو مذبح الانسانية التي سماها الكائن الاكبر ووضع لها دستوراً جامعاً لاصول العلم والاجتماع والدين ينطوي بالاختصار على خمس عشرة شريعة هي دعائم فلسفته الايجابية شعارها السياسي نظام وتقدم وشعارها الديني الايمان بالانسانية والعمل في سبيل الناس. اما شعارها المشترك فينحصر بالعائلة والوطن والانسانية.

وليست الاوطان على اختلاف مواقعها ودساتيرها سوى اجزاء واحدة لهيكل واحد مترابطة بحيث اذا اختل جزء منها يختل المجموع بكامله فهو لا يتردد في تمجيد وطنه تمجيداً يتفق مع مقامه وتقاليده وهو يقول ان فرنسا جندي من جنود الانسانية ذو نفس جبار يأبى ان يظل مكتوف اليدين في وسط الازمات الاخلاقية والسياسية وان يحني الرأس تجاه الامم النازعة الى التسيطر او ان يقف موقف المتفرج حين يطغى تيار البربرية على التمدن والفوضى على النظام. ففي هذه الآونة المفجعة حيث تضطرب اسلاك الفكر والروح نجد دليلا في جملة الادلة على ان واضع الدعوة الايجابية قد تبين من خلال القرن التاسع عشر بعض مشاكل القرن العشرين وقد اشار اليها في ابحاثه الجامعة بلهجة الجزم والتأكيد قائلا ان الفوضى الفكرية ولا سيما فوضى التعاليم قد تحفز نزعات التسيطر وتنتهي بالانسانية الى الثورات والحروب وان السلم العالمي لا يقوم الا على الفكرة العالمية. ان في هذه الحقائق اختصاراً مفيداً لبعض العوامل التي ادت الى الحرب الحاضرة حيث نرى العالم يهبط الى جحيم الحرب منشطراً الى معسكرين يتجابهان باحدث وسائل الفتك والتدمير ولا يرى موقفاً ادعى من هذا الموقف لترديد قول اوغيست كونت ان جحيم الحرب قد يكون مفروشاً بالنيات السلمية ففي هذا القول يجد اقطاب الديمقراطية صدى سابقاً لتصريحاتهم بل نوراً على نور وقوة على قوة يستمدونها من احد اعاظم ممثلي الفكر الحديث.

نسيم بزبك

قصة

راحة الضمير ...

بقلم سهيل ادريس

« ... واني اذ استثير تلك الذكرى ، استثيرها مدكراً ، في الصدر همّ رازح ، وفي الفؤاد ألم مرير ، وفي العين دمعة حرّى ... واني لاخشى الخشية كلها الا يرفع الله عن كاهلي اصرّ هذا الندم القاتل الذي يحزّ في النفس فيرمضها ... وإن اروم من اذاعة قصتي الا ان يشعر الناس شعوري ليندموا ندمي ، ويقاسموني اسفي ، علّ في الاكثار من الاستغفار مجالاً للغفران ، واني لتوبة الله عليّ الكثير الرجاء ولجدّ حريص ...

... كنتُ في الثانية والعشرين من عمري شاباً ملء جوانحه املُ الشباب الغضر ، وطيّ جنبيه اماني الصبا الرفافة ، ولم يكن ينقصني الشعور باني شاب ... وسعادة الشاب في الحق ان يقر في ذهنه هـذا الشعور ... وكنت اتوسم من اماني التي اترع بها فؤادي مستقبلاً ان تضن عليّ به الايام البيض ...

ولقد كنت اوثر الوحـدة والانعزال لما فطرتُ عليه وعودته من ملازمة غرفتي منذ نعومة اظفاري ، ولعلي لهذا السبب كنت الحّ على والديّ في اختيار اكثر المصايف حظاً من الهدوء واوفرها قسطاً من البعد عن جلبة المدن وضجيجها ... ولقد وقع اختيارنا في تلك السنة على قرية «بوارج» مصيفاً لنا .

اما الدار التي نزلناها ، فهي مـن ارفع الدور ، يتسنى للمرء منها ان يستقصي بنظره حدود «البقاع» كلها . وكان يلذني ايما لذة ان اتبوأ كرسي الطويل لاجيل طرفي في مفاتن هذا السهل الواسع الذي ينتظم بقعاً مختلفة الالوان تسر العين وتمتعها ، ولا ينقصها أثارة من روعة الطبيعة ... وما كان لي الا ان اجلس على الشرفة حتى اصيخ الى اصوات المياه تجيشُ وتنحدر ناعمة هادئة ، تبتعد رويداً رويداً فلا اعرف اين تصب .

عشت في «بوارج» في غاضف من العيش يستعف الزمن ان يخدشه ، وكانت كل مفاتن الطبيعة هنالك تحدوني الى التـأمل ، فغريت بالمطالعـة ، وكلفت بالقراءة . فكنت اذا شرعت طيور الدوح تصدح ، اصطحب كتابي الى شجرة غيناء ترى من شرفة دارنا ، ويرى الذي يتفيأ ظلالها الوارفة عيناً قريبـة يتردد سكان القرية اليها ليتزحوا من مائها ... ولقد ارتضيت ذلك المتفيأ متنسكاً اهيم فيه ما حلا لي بين حفيف الورق ، ونغمـة النسائم ، وتهويد الطيور السعيدة ... وكنت اخالها سعيدة لانني انا سعيداً ...

وتوجهت ذات يوم الى متفيأي في رأد الضحى ، وما كدت ابلغه ، حتى عنّ لي فتاة قروية ، تنطق بسمة ثغرها النسق بناعم الامل ، وينم بريق عينها الصافية عن مرهف العاطفة ، وتشف لفتة جيدها التلع عن ساحر الجمال ، فصرفني مرآها عن استئناف التلاوة ، ورحت اتبعها نظري حتى بلغت العين ، وما هي الا لحظة ملأت فيها قربتها حتى عادت يشيع المرح على وجهها الريان . ولما بصرت بي بين الاغصان ، غاضت بسمتها وقالت تحييني بصوت خافت — « صباح الخير » فرددت عليها السلام ، وترقبتها حتى غربت عن ناظري ... وعدت اتابع المطالعة وقد شعرت بسرور غريب لا يمثل الفرح وان كان يمثل بعض الراحة ... ولكنه لم يكن الا سروراً عارضاً ما لبث ان تلاشى بعد لحظات ...

والمت الفتاة بي في اليوم التالي ، فاغضت ببصرها اذ لمحتني ، ولم تحيني ... ولكني لحظت منها ان الخد قد احمر خفراً ... وعلى هذه الحال مرت ايام تسعة ، لم يكن البدع فيها الا ان الفتاة كانت تحاول — اذ تلمحني وتحمر وجنتها — ان تتكلم ، ان تنطق بشيء لعله طرح السلام ، فلا تجرؤ على ذلك او لا تستطيع ... ولا ريب ان نظرتها كانت تحوي الى احترامهـا الذي تكنه لي لكوني مدنياً وهي قروية ما يُسر عن شعور جديد اضطرب فيها لاول مرة ... وهذا الشعور الجديد الذي اخاله يرف في مقلتيها شغل بالي فصح عزمي ان انقطـع عن النزول الى متفيأي ... ولكن ... الفيتني في اليوم التالي تحت الشجرة كأنما انتظر احداً من الناس ... وعادت القروية الحسناء بعد ان ملأت قربتها .. واحسست قبل ان تحاذيني انني عطشان — ثم اشتد بي اللهاث حتى خلت بان ريقي لن يبلل بعد لساني ... وبشيء من الاضطراب رغبت الى القروية ان تسقيني من قربتها ... ولمحتها تضطرب اذ لم تجد ما تسقيني به ، فاذا انا ابسط كفي ثم اضمها ، واذا هي

تميل قربتها فينحدر الماء على كفي خصراً صافياً ... وكلما لحظت ساعتئذ ان كفيها كانتا ترتعشان وهي تصب لي الماء .. وشكرتها، فردت لي الشكر ببسمة كلها سحر ودلال.

واذ عدت الى داري في نار الظهيرة ، استشعرت لوناً من الضيق يمازج هدوئي ... وكان طبيعياً ان يجدد الوجدان عزم الانقطاع عن ارتياد المتفيأ .. وكان عزماً حازماً أيده الاعتقاد بان من يغرض الى السعادة انما هو بالغها اذا حاول ان يبعد اي هم من ان يعروه ، ويقضي على اي يأس من ان يتملكه ...

والحق ان فكري يومذاك لم ين لحظة عن التدخل في الشعور فكان يقارن بين ساعاتي الماضية التي لا تحمل غير الانشراح والهدوء والصفاء ، وبين هذه الساعات التي بدأت ضروب من الضيق والهم تشوبها .. وبلغ من حبي لهذا الرأي « انما السعادة في هدوء البال » ان اتخذته عقيدة فكرية محال علي نقضها .. واذاً فلقد عزمت ان احتفظ بهذا الرأي ليقودني في ايامي المقبلة ، كما قادني حيناً في ايامي السالفة .. وتغلب الفكر على الشعور .. وتبوأت في اليوم التالي كرسيّ الطويل على الشرفة المطلة على الشجرة الوارفة ، وبعد هنيهة لمحت القروية مارة تلحظ اليها ، ثم حين لم تلف احداً اخذت تجيل الطرف حولها حائرة متوزعة الفكر . وكذلك تقضت بضعة ايام وانا ملازم كرسيّ على الشرفة ، وهي على هذه الحال من الحيرة والاضطراب . ولمحتها ذات يوم تعطف على الشجرة وتستنيم الى ظلها الوريف كأنها تستجم .. ثم انفتلت عائدة من حيث اتت لم تملأ قربتها كأنها ضلت طريق العين ، او سهت انها تحمل قربة . و لذي لاحظته كذلك ان في عينيها عزماً جديداً استحققه ...

وعلمت ان والدتي تشتكي قلة الماء في الدار وترجوني ان ابحث عمن يزودها منه على قدر حاجتها . وبحثت طويلاً فلم اهتد الى احد . والحت والدتي في طلب الماء حتى بلغ الحاحها الغضب ، فلم اجد بداً من النزول الى متفيأي انتظر ان تمر القروية الحسناء علها تقبل طلبنا .. وكنت اعلم ان في ذلك ايذاء لي ، ولكن لحاجة امي اكرهتني علي قبول هذا الاذى .. وابطأت انتظار الفتاة فلم تمر .. ثم ترقبتها في اليوم التالي فلم تظهر ، فرجحت ان قد يكون تقاعدها عن غشيان العين شغل .. ولكن ثلاثة ايام مرت بعد ولم تلم بالمتفيأ . وعزمت ان اتربص يوماً آخر ان لم تظهر لي فيه اضطررت الى ان احمل الماء بنفسي الى دارنا كي اخفف من ضيق امي وغضبها ..

وهذا هو اليوم السادس يكاد كله يتجرم .. وهأنذا اعود الى داري وقد داخلني بعض الانشراح وآثرت ان اتحمل هذا الجهد على ان اتحمل ذاك .. واني لفي منتصف الطريق اذ ابصرتها آتية مطرقة ، ثم رفعت بصرها فرأتني .. وتسنى لي ان الاحظ انها عبرى محزونة . وفجأة رأيتها تعزم على المضي ، فلم ادر اي شعور عراني فاوقفتها ، وحدقت في وجهها اريد ان اتكلم فلا يتأتى لي ذلك .. ثم سمعتها تقول بنبرة حادة دون ان تنحي الي بصرها :

— ماذا تبغي مني ؟ ... دعني ... من انت ؟ ... انا لا اعرفك ..

... وكان ضيق شديد يختلف علي فيشقق صدري الخافق الملح .. وكذلك لم ادر كيف تقدر لي ان اسارع بالقول في نغم مستطيل :

— اوه .. انا اعرفك .. اعرفك .. يا ..

ارتج على ، فلم اتم . ولكنني لاحظت ان وجهها يوشك ان يتهلل ، ودنوت اليه فأخذت فتنته بجامع فوادي .. انه وجه رائع فيه حسن وفيه سحر ، وما كان يكون هكذا رائعاً لولا ان مخايل الالم وسيماء الاسى وطلائع المرض قد رسمت على تقاطيعه رسماً مؤلماً . ثم رأيتها تسبل اسفارها الهدب ، فلم ادر ماذا تروم ولكنني سارعت الى القول في صوت خافت :

— يا .. ان دارنا مفتقرة الى المياه ، فهل ترضين ان تزوديها ببعض ماء العين ؟

فرفعت اليّ عينين حالمتين وارتني منهما نظرتين ساهمتين ، فيهما بثٌ وشكوى .. وتصنعت انني لم أفطن ، واستعجلتها الجواب ، فقالت بصوت هامس يشف عن هم مكبوت ، واسى مكنون ، صحبته تنهيدة طويلة :

— نعم .. يا معلمي .. نعم يا سيدي ..

وانثنيت قافلا الى البيت ، وعند المنعطف لحظت اليها ، فالفيتها حيث هي ، لا تريم ولا تمضي .. وكان طبيعياً الا يخفى علي ان للفتاة القروية تحوي صورة وكلفاً ... وسرعان ما عزمت الا أستلين لتذلل قلبها ، فأكبح من جماح عاطفتي واحد من حنين روحي . وكنت اثق ثقة لا يخالطها شك ان ليس في غير ذلك ابقاء للسعادة التي ارمقها واحاول جهدي ان احتفظ بها .. و إذن ، فليبقَ الفؤاد في أساره ومحتبسه ..

وحين افقت في صباح اليوم التالي وخرجت الى الشرفة ، ما لبث ان طلع عليّ طيف يحمل قربة على رأسه .. انها هي ..

« مياسة » .. ويا له من قوام ممشوق يتخطر في دل ، ويتاوج في فتنة ..

اذ ذاك فحسب صحّ عزمي على الاّ اظهر لها ما دمنا في « بوارج » ؛ ولعل لي في هذا العزم تحرزاً من الطاعة للاغراء ، وتقية من الوقوع في الشباك المحظورة ، ولعل للفتاة فيه كذلك دافعاً للانصراف عني ..

وكان مما هيّأ لهذا العزم الجو الصالح هذا الكتاب الذي وردني من صديق لي يستنزلني فيه الى داره في مصيفه الجميل «كيفون» .. وما زلت اذكر انني رأيت في منعطف قريتنا الاول — بعد ان استقلات السيارة قاصداً قرية صديقي — يداً بيضاء كانت تلوّح بمنديل اخضر .. ونظرت من نافذة السيارة الخلفية فأتيح لي ان ارى تلك اليد البيضاء تهوي بذلك المنديل على العينين..

زجيت لدى صديقي في «كيفون» تسعة ايام ما كان اعذبها واحلاها . وإخال ان حلاوتها ترجع الى انني ابتعدت ردحاً من الزمن عمن يحاول ان يشغل بالي .. وحين قفلت الى «بوارج» بشرتني امي بوجه مشوق . ثم علمت منها انها عادت تشتكي قلة الماء لان القروية « مياسة » قد انقطعت عن المجيء منذ ان غبت . فسرني النبأ وقلت في نفسي « لقد نسيتْ » .. ولكن امي عادت وبلغتني انها التمستها في دارها فلم تجدها وان اهلها في بحث عنها متواصل وفي خوف عليها شديد .. ولم احاول ان اخفي عن نفسي ان لذلك كله صلة بي مباشرة ؛ بيد انني اصطنعت اللامبالاة ..

وهبطتُ في اليوم التالي الى « بيروت » بغيةً في الترويح عن النفس، ولكن ما كاد المساء يهبط حتى كنت عائداً الى «بوارج».. لا ادري ماذا كان يربطني بتلك القرية المشؤومة ؛ وعلمت اذ بلغت القرية ان « مياسة » قد عادتْ واستأنفت عملها ، وانّ والدتي حاولت ان تستبثها سر غيبتها ، فلم تفلح ... ان شيئاً من هذا لا اكترث له ، انما الذي اسقط العبء انها عادت ... فلأعتصمْ بعدُ بعقيدتي !! .

ونهضتُ في اليوم التالي باكراً فقصدتُ الجبل .. الى حيث لا تراني ولا اراها .. الى حيث يضفي عليّ السكون اثواب الهناءة ، والى حيث يسبغ علي التفكير استار الهدوء ... ولم ارجع الى داري الاّ بعد ان طفلت الشمس ، اعني بعد ان انتهى عمل القروية .. وحين ولجت الدار التمستُ امي فلم اجدها ، ورجحتُ انها لدى احدى الجارات ؛ ولكنني حين توجهت نحو غرفتي تطرّق الى سمعي نحيبٌ شجيّ ، فاندفعت ظاناً انْ قد مس امي سوء ، ودخلت الغرفة على عجل .. وماراعني الاّ ان المحها هي .. « مياسة » جالسة على كرسي دانٍ من سريري ، حانيةً رأسها فوق قربتها وضعتها على ركبتها ، تنشج وتنتحب .. وقادتني رجلاي على رغم مني اليها .. وهأنذا ارى شعرها الأشقر الذهبي متموجاً رائعاً . واذ لامست بكفي عاتقها تنبهت مذعورةً ، ثم انتصبت واقفةً ، ونظرتْ اليّ غاضبة ، وقالت بلهجة حازمة حادّة محملة بالاسى والغضب :

— : ماذا تبغي مني ؟ .. دعني ، من انت؟ .. انا لا اعرفك ..

ولكنها ما كادت تفرغ من النطق بهذه الجملة ، حتى سكن نفسها فجأة ، واتسعتْ حدقتاها ، ثم انحت عنيّ بصرها ، ثم عادت فحدقتْ في لحظةً اخرى .. وفجأة انقلبت اسارير وجهها . فارتمت على الكرسي تقول بنحيبٍ هادئ :

— آه .. حلمي .. سيدي .. معلمي

نطقت ساعتئذ على غير شعورٍ مني باسمها وسألتها ما بها ، فلم تُجب ، فجلستُ على حافّة سريري عن كثب منها ؛ واعدتُ سؤالي . واذ ذاك رفعت اليّ عينين أرمضهما بكاء لا ينقطع ، وثراهما دمعٌ صبيب لا يجفّ .. ثم التفتتْ الى النافذة ، واعادت ذكر اسمي بتنهيدة طويلة ومدتْ كفها ، فأخذتْ به كفي ، ولم استطع ان اقاوم رغبتها فاغضيت ببصري الى الارض ، وإنّ يدي لتحترق بنار يدها .. وتكلمت « مياسة » القروية الحسناء زمناً طويلاً وانا لا احاول ان استصمتها ، فعبرت عن جميع عواطفها منذ ان رأتني الى ان قصدت كيفون ، واعلمتني انها لم تستطع بعدي صبراً ، فخرجت من قريتها وسارت يومين كاملين تسأل الناس عن كيفون وعن ابعادها ، وكانت آخر جملة قالتها : — وتعطف لي اناس ، فاطعموني من طعامهم ، وآووني في ...

واذ ذاك غلبها البكاء ، فآثرت الكف عن الكلام . ورأيتها هذه المرة تحني رأسها فوق وسادتي ، ثم تمرّغ خديها بغطائها الرقيق فتبلله ... وكان الشعور العميق يتكاثف علي بالحيرة والاضطراب والتردد حين سمعتها تقول :

— حلمي ... حبيبي ...

وتقدمت منها فجأة ، فرفعت رأسها عن وسادتي ، وطوقت كتفيها بذراعيّ ، ثم اهويت على شفتيها بقبلة عميقة شديدة ... ونهضت اريد الخروج ، فتعلقت بذراعي وقالت بلهجة تشف عن الامل العريض :

— يا حلمي .. يا معلمي .. اتخذوني خادماً في داركم انزل معكم الى بيروت !

فلم ازد عن وعدها خيراً ، وخرجت من الدار يسوقني شعور مبهم حائر .. وحين قطعت من الطريق شوطاً بعيداً توقفت فجأة وقد عراني غضب شديد ، قد يكون غضباً على نفسي ، انا الذي يروم ان يعيش هادىء البال ... ورجعت الى عقيدتي تلح على الفكر الحاحاً شديداً حتى لتغرق الشعور في اللاوجدان، وتملكني الاسف على ما بدر مني ، وعلى ما تعجلته نحو الفتاة من الوعد والرضى ... وحين كنت في طريق العودة — وان الليل ليشتد اسوداده — احسست ان الشباب يعود الى الوعي .. إنه الشباب يتعقل ...

وافضيت الى والدتي ليلتذاك برغبتي في تعجيل هبوطنا الى بيروت ، وبانني لم اصب في هذا الجبل اي حظ من السعادة والسرور فوافقت على رغبتي قائلة انها هي الاخرى لم تجد في القرية مبتغاها .

اما الوعد الذي حملت فيه بعض الامل للقروية ، فكان وعداً مزيفاً .. ذلك ان خادمنا في «بيروت» كان ينتظر عودتنا وهو في خدمة بعض افراد العائلة العاملين . غير اني لم ارتض بعد ان اصدم القروية بحقيقة جديدة ، لانني كنت اوقن ان سيكون لذلك اثر غير محمود العاقبة ، فكنت احادثها من غير مؤانسة ، واكلمها من غير تطويل . ولكنها مع ذلك كانت تقبل طروباً يشيع الجذل في محياها البسام .. وكانت تسألني عما وعدتها فيه خيراً ، فكنت اجيبها بانني لم أشر بعد على والدتي . فتكتفي ببعض العتاب اللين الهادىء . ومما لاحظت في ذلك الردح من الزمن انها كانت تعمل بجد لم اعهده عليها ... وكم للامل من اثر في حياة القلب العميد! ..

* * *

وتعجلنا العودة ، فاستغرق الاستعداد والتهيوء اياماً ثلاثة حاولت فيها جهدي الا اظهر للقروية وجهاً لوجه حتى لا تحرجني اكثر مما فعلت في سؤالي عما وعدتها فيه خيراً ... وكانت هي الاخرى لا تتوق بعد ان تسألني ...

واشرقت شمس اليوم الرابع وإن هدوئي ليرجع الي رويداً رويداً . وانهمكنا في نقل المتاع الى السيارة التي استقدمناها باكراً لتقلنا الى بيروت . وعجبت ان لم ابصر بمياسة تمالئنا على نقل المتاع ، ولكن صدري كان منشرحاً ، ورجوت ان يكون سها عن بالها انه اليوم الموعود ، فاتجنب ما قد يكون له في نفسي بعض الاثر او كله ، وحملني فرح شديد اذ فرغنا من نقل المتاع ولم تبد «مياسة» . فاستعجلت السائق بالمضي ، وانطلقت السيارة تشق طريق القرية ، واذ ذاك فحسب شعرت بأن الكابوس الذي يرزح تحته صدري يسقط عني ... لقد تحررت من محتبس الالم ، وانطلقت من اسار الهم ...

اما هي ، اما «مياسة» القروية الحسناء ، فلتفعل ما بدا لها ..

وبلغت السيارة منعطف القرية الاول .. فاذا بي اراها هي .. مياسة .. منتصبة بقامتها الفارعة الممشوقة ، باسمة عن ثغرها النسق مرتدية اجمل ثيابها ، متجملة متزينة .. كانت على جمال لم احلم به يوماً ...

واشارت بيدها تستوقف السائق ، فاذا بوجنتي تحمران من الحنق ، واذا بصدري يتشقق من الغضب ، ولم اتمالك ان أهبت بالسائق الا يلتفت ولا يلوي عليها ... فتابعت السيارة سيرها ولكن على رود ...

وهدأت نفسي وسكنت رائعتي .. وملت الى النافذة الخلفية اود ان اودع القروية باشارة من يدي . ورأيت بسمتها تغيض .. وسرعان ما كز وجهها . ولكنها مع ذلك ما زالت تتبع السيارة نظرها . وفجأة لمحتها ترفع ذيل ردائها الفضفاض كأنها تتأهب للحاق بنا .. وعدت قليلا .. فرجع الي غضبي ، وصحت بالسائق ان اسرع .. وما ان رأت السيارة مسرعة حتى اسبلت ذيل ردائها وتوقفت لحظة وقد اتسعت حدقتاها وجحظت عيناها ، ثم عدت مرة اخرى ووقفت على شفا هاوية على جانب الطريق الايسر ورفعت ذراعيها ...

وتشوفت بنظري ، فلم ار احداً ..

عراني دوار شديد ، فارتميت على المقعد منهوكا وكدت افقد رشدي . فصحت فجأة بالسائق ان يلف ، وانطلقت اعدو مجنوناً غير واع ... حتى اذا بلغت الشفا ، رميت بنظري في القرار ، فاذا بي ارى جسداً فتياً ناهداً ... يتخبط ...

واستطعت ان المح على مقربة من الرأس صخراً صغيراً بدأ الدم يسيل عليه ... انه دم احمر ... ما اقناه!!! ...

في تلك اللحظة فحسب ، ارتضت العين ان تستعبر بدمعة واحدة ... ولكنها دمعة لا يزال حرها يلهب جفني ، ويحرق اشفاري .. بيد انني منذ ذلك الحين الى ساعتي هذه لم انقطع عن التساؤل : أليست الرغبة في الابقاء على هدوء البال ، هي التي بعثت بكل هذا الهم الى البال ، وبكل هذا الشجو الى الضمير؟؟

سهيل ادريس

الخيال الساري

انبئيني عمّا يجول بعينيـ ـك وما لا يجول من اسرارِ
لا بعيني الملأى من النور اشرفتُ على كنهها ولا افكاري
كلما ضجت الحقيقة في اذنيّ اخلدتُ للخيال الساري
وتسنمت ذروة الافق الأعلى الى كل كوكبٍ سيارِ
فأرتني عيناي أنكِ في آفا قها بعض هذه الاقمار
وعلى الارض بعض هذي التما ثيل من الناس او من الاحجار
وأرتني عيناكِ اني والكو ن غريقان منكِ في تيارِ

عبقر الفنان

الامانيُّ أعلقت بيَ عينيـ ـكِ وعيناكِ رمز هذي الاماني
كيف لا ارصد النجومَ لعينيـ ـك طوالَ الدجى ، ولي عينانِ
اوَ ما جالتا ، وقد خفق الحا لم ، من وجنتيكِ في بستانِ
تملأُ النفسَ منه بالامل الغض روىً عبقريةُ الالوان
لا عيونُ الرائي تفوز بما تبـ ـصر منها ولا اكف الجاني
إنما هن في السما مُثُلُ الفنِّ وفي الارض عبقر الفنان

محمد علي الحوماني

اثر الغزالي في المدارس المتأخرة

بقلم زهير فتح الله
ليسانسيه في الفلسفة من جامعة فؤاد الاول

◆

هذا العنوان قضية يتطلب شرحها ان نعمد الى خط وهمي كبير نضعه عامودياً على خط الزمن عند فجر القرن السادس الهجري فنفصل بذلك بين حقبتين طويلتين من احقاب التفكير الاسلامي: حقبة اولى تسبق هذا الخطأ الذي توهمناه، وليس لنا بها علاقة مباشره او جدية

وحقبة ثانية تبتدىء بابتداء ازمة نفسية اصابت احد الاساتذة في المدرسة النظامية في بغداد حوالي سنة ٤٨٧ هـ. ازمة تطورت وتعقدت ثم انتهت بعد ذلك ككل الازمات الى حل يبالغ البعض في قيمته، فيجعله سداً كسد الصين وقف في وجه انواع التفكير المخالفة للعقيدة السلفية، فحال بينها وبين النفوذ الى الملايين من مسلمي العصور التالية، كما يبالغ البعض في الازدراء بها — كهادمة للنظر العقلي — ويذهب الى انها لا تعدو ان تكون زهرة يانعة من ازهار هذا البستان الذي لا يعرف الكلل اعني به العقل الانساني. زهرة اذا كان لها ان تتمتع بالصدارة في هذا البستان مدة من الزمن فإنه لم يكن لها ان تطغى على موجودات هذا البستان الذي حواها، وتستأثر بالحياة من دون هذه الموجودات.

عاش الامام الغزالي من ابتداء النصف الثاني للقرن الخامس الهجري الى خمس سنوات انقضت من القرن السادس ومر باطوار عدة من كفالة عند احد الصوفية الى دراسة للفقه عند امام الحرمين، ثم ممارسة للكلام والجدل، حتى انتهى امره بعد الاتصال بنظام الملك الى منصب الاستاذية في المدرسة النظامية في بغداد. وفي هذه الفترة الاخيرة يروي لنا مترجموه انه انكب على دراسة الفلسفة حتى اخذ منها بنصيب يتناسب مع رغبته وتهيؤه للعلم. وقد تكلم الغزالي نفسه عن تلك الرغبة وذلك التهيؤ فقرر انهما كانا له منذ طفولته فطرة وجبلة. لن اثقل عليكم بسرد ترجمة الغزالي كما اني لن احاول ان ابسط مجمل آرائه وافكاره عن مختلف المواضيع الفلسفية والحكومية والصوفية والدينية، وانما سأتعرض الى ذلك بالقدر الذي يتطلبه بيان تأثيره فيمن اتى بعده من المدارس المتأخرة.

وعلى ذكر المدارس المتأخرة هذه يجدر بنا ان ننظر اليها نظرة تفصيلية بعض الشيء، انما ان نفعل، نرى ان النشاط الفكري في تلك الحقبة من الزمن، كان عليه ان يرتدي احد الاردية التالية:

١ — الفلسفة الهلينية ٢ — علم الكلام ٣ — العلوم الدينية ٤ — العلوم الدنيوية ٥ — التصوف.

مما لا شك فيه انه كان للغزالي تأثير في بعض هذه الفروع فمن اين اتى هذا التأثير، ولم كان للغزالي تأثير يحبذه البعض ويستهجنه الآخرون؟. ان السبب في ذلك بكل بساطة، هو ان الغزالي كان له رأي في كل من هذه الفروع يخالف بعض الشيء الطريق الرئيسي الذي كان يترسمه هذا الفرع، كما انه كان من حظه ان هذا التغيير قد صادف قبولاً عند عامة الناس فاعتنقوه

اما طبيعة هذا التأثير وعمقه والدافع اليه فإني سارجيء الكلام عنها الى ما بعد سرد اقوال بعض الباحثين في الموضوع.

يحدثنا مكدونلد عن حجة الاسلام فيقول:

« ان الغزالي كان في الفترة التي تولى التدريس فيها في المدرسة النظامية في بغداد شاكاً كبيراً، لم يكتف باحاطة الحقائق الدينية بهالة من الشك بل تعدى شكه في هذه الحقائق الى الشك في امكان اي معرفة يقينية. ثم عمد اذ كان في خدمة نظام الملك الى الرد على الاماميين والتعليميين والاسماعيليين وكلهم باطنية.

ولكنه من بعد الضائقة التي مر بها اصبح يأخذ بمذهب عملي وكان يعلم الناس ان العقل الفعال لا يجب ان يستعمل الا في هدم الايمان الذي يمكن ان ينشأ عنه نفسه. كان يرى ان النظام الفلسفي الخالص لا يمكن ان يكون متيناً.»

ويرى مكدونلد « ان المتكلمين الذين جاؤا بعد الغزالي لم يفهموه او انهم لم يذهبوا مذهبه ولكن يظهر ان الاسلام الحديث ينزع الى الرجوع الى طريقته. »

لقد كان الغزالي يشعر بعد ما رأى من حوادث زمانه في اواخر القرن الخامس ان الاسلام بحاجة الى من يقوم فيه بحركة تجـديد تشمل اول ما تشمل محاربة الهرطقة والالحاد .»

لذلك رأيناه يعمد الى الفقه فينزع عنه تلك المكانة العالية التي كان يتمتع بها ويظهره على انـه ليس من صلب الدين . كما انه اظهر عدم فائدة تلك الدقائق الجدلية في علم الكلام ، وعارض تلك النزعة التي كانت ترمي الى حصر ايمان العامة في مقالات يذهب اصحابها الى اثباتها بالمنطق تلك المقالات التي كانت تسمى العقائد .

ثم كانت له خلال ذلك نزعته الظاهرة الى التساهل ذاهباً في ذلك ضد المتكلمين . في كل ذلك اعتبر الغزالي محيي الدين ومجدده . لقد رد الغزالي الفلسفة الى آراء واضحة خالصة من ذلك الغموض الذي كان يحيط بها عند من سبقه ممن اشتغل بها . وكان يرى ان الميتافيزيقـا يمكن ان تؤسس على التفكـير فقط . ونستطيع ان نعتبر هذا تتمة لتلك الاراء التي كان يقول بها الاشعريون من قبله . واذا كان من تجديد يمكن رده الى الغزالي فهو انه جعـل للتصوف مركزاً ثابتاً في مذاهب اهل السنة . وكان بذلك مكملاً لعمل القشيري .

ولقد كان الغزالي يرى انه اذا كان ولا بد من دليـل على صحة العقائد التي وصلت الينا من السلف فإن ذلك الدليل لا يأتي الا عن طريق تلك الحالات التي تحصل للعارف .

والذي يجب ان نلاحظه هو ان الغزالي رجـع الى الحق عن طريق الخوف . ونحن لا نملك انفسنا من التعجب عندما نشاهد عنده هذا التكرار المستمر لحبه لله وقد يذهب بعضهم الى القول بتأثير الغزالي في العصور الحديثة في اوروبا وذلك في ملبرنش وباسكال والقديس توماس مثلا .

وتقرير ذلك هو جدي اكثر مما يظن بعض الذين تستهويهم مشابهات ظاهرية او حقيقية فيعمدون الى تقرير التـأثير لبعض المفكرين على بعض دون ان يكونوا قد قاموا بالتحقيق الكافي المقنع لاثبات ما يذهبون اليه .

ومهما كان من امر فان تقرير مثل هذا التأثير يتطلب توسعاً في البحث يضيق به مجال موضوعنـا ، لذلك نكتفي بالاشارة الى امكان وجود هـذا الاثر وننتقل بعـد رأي مكدونلد في الغزالي الى كارادفو حينما يتكلم عن حجة الاسلام فيقول :

ان الدكتور ساشو الذي كتب مقدمـة الكتاب البيروني ، وكان معجباً به كل الاعجاب ، اصدر حكماً قاسياً على الغزالي حينما قال : « ان القرن الرابع كان نقطة انحراف في التاريخ الفكري للاسلام . وما تثبت الاعتقاد السلفي وتحكمه حوالى سنة ٥٠٠ ﻫ الا قيد طوقت به الابحاث المستقلة فلم تقم لها قائمة بعده . ولولا وجود الاشعري والغزالي لكان العرب امة تخرج امثـال غاليليه وكبلر ونيوتن . »

يقول كارادفو تعليقاً على كلام ساشو :

اننا في الحقيقة لا نستطيع ان نجاري ساشو في حكمه هذا . وذلك لان شروط انتاج العبقرية لا تزال مجهولة او في حكم المجهولة . وفوق هذا يجب علينا ان نقرر انه لو كان لعبقرية قوية كعبقرية غاليليه وكبلر ان توجد في الاسلام بعد الغزالي لاستطاعت بما لها من حيوية وقوة ان تتخلص من تأثير ذلك الاعتقاد السلفي الذي كان يكون الاطار للجمهور من المفكرين . وفوق ذلك فالمقرر ان نجاح الغزالي في دعوته لم يكن كامـلاً لان ابن رشد حاربه اولا ، وثانياً لانه وجد بعد الغزالي من ذهب هذا المذهب النقدي او الشكي فيما يتعلق بالتراث الذي خلفه لنا السلف . واكثر من ذلك فنحن نرى ان الغزالي لم يستطع ان يكون المسيطر حتى في مملكته ، ولم يتمكن من محو هذه المجادلات الكلامية التي كان يطمئن اليها كثير من المتدينين .

اذا كان الامر كما ذكرنا فبم نفسر هذه الرغبة التي شعر بهـا الفكر الانساني في الشرق ، كما شعر بها الغرب في الاطمئنان الى عقيدة ثابتة . . . لماذا نزع نمو التفكير في الشرق ابان تلك الفـترة الى نوع من الخمول والاستكانة ؟ . . . لقد بقي هـذا سراً من الاسرار ، حتى ولو لم يكن الامر كذلك ، فانه ليس لنا ان نرجعه لشيخ او لشيخين على التفكير عامة .

انه من الممكن ان نرجع ذلك الى نوع من التراخي والكسل في الجنس كما نستطيع ان نرجعه جزئياً الى بعض الاسباب السياسية

والطريف في المسألة ان الرغبة في الاطمئنان الى سلطة قديمـة لم تكن قاصرة على الآخذين بمذهب السلف ، بل انها كانت تعم المعسكر الثاني في الفكر الاسلامي ، ونعني به معسكر الفلاسفـة او المتحررين . يظهرنا على ذلك ان ابن رشد كان يجـل ارسطو ويتعلق به اكثر مما كان يجله ويتعلق به المتقدمون .

ولقد كان لسلطة القدامى في العلم تأثير كبير في الغرب ، كما كان للدين سلطـة تفرض نفسها في كل مناسبة . لذلك كان على غاليليه وديكارت اذ ظهرا ان لا يكتفيا بصد هجمات السلطـة

الدينية ، بل كان عليها ايضاً ان يحاربا نوعاً من السلطة العلمية التي كانت هي الاخرى تدعي كمال نفسها وتسعى الى اخذ النـاس بالاعتقاد بهذا الكمال ما وسعت الى ذلك سبيلا .

اذن فظاهرة الرجوع الى سلطة من السلـطات في التفكير كانت عامة في تلك الحقبة من الزمن . ولكن الذي يفرق بـين الشرق والغرب ، هو ان الغرب ابتدأت فيه حركة مقاومة لهـذه السلطة منذ عهد النهضة واستمرت الى ما بعد الثورة الافرنسية ، في حين ان الشرق لم تبدأ فيه هذه الحركة الا منذ اوائل هـذا القرن .

ومهما يكن من امر فاننا لا نستطيع ان ننكر مـا للغزالي من عظمة وخطر . نستطيع ان نقول عنه انه لم يكن ذا نزعـة علمية بالاجمال . وهذا صحيح ... لقد كان مفكراً اخلاقياً ودينياً اكثر منه اي شيء آخر .

ولكنه في هذا بالذات كان اكثر دعوة الى التجديد في كثير من النواحي وبالتالي في الاجمال من خصميه ابن سينا وابن رشد .

انه في حربه للفلاسفة ، قد حارب مقدماً ضد هذه المدرسة المتغالية وهذا التفريط في استعمال الاستدلال العقلي ، بل نستطيع ان نقول انه قد حارب فعلا ضد اي سلطة يمكن ان تكون في الحقل الفكري انه بحث عن حدود العقل ، كما اظهر بوضوح مذهباً « ذرائعياً » في مادة الايمان . لقد كان اخلاقياً مرهفاً ، كما كان محللا ونفسانياً على طريقة المحدثين تقريباً . لقد وضع علم النفس قبل موضع القياس . ونحن اذا اعتبرنا نبل روحه ، وعظمة حياته ، واتساع نتـاجه ، ودماثة اخلاقه ، وامتياز فنه ككاتب ، نحن اذا اعتبرنا كل ذلك فاننا لن نستطيع ان نتخلص من الحكم بانه من اكبر الممثلـين للفكر الانساني في تلك الحقبة من القرون الوسطى . »

ويقرب رأي دي بور من رأي كارادفو حين يقول :

« وكثيراً ما يقـال ان الغزالي قضى على الفلسفة في المشرق قضاء مبرماً ، لم تقم لها بعده قائمة . ولكن هـذا زعم خاطيء لا يدل على علم بالتاريخ ولا على فهم لحقائق الامور . فقـد بلغ عدد اساتذة الفلسفة وطلابها بعد عصر الغزالي مئات بل الوفاً . وظل علماء التوحيد متمسكين بادلتهم الكلامية يؤيدون بها العقـائد ، كما لم يترك علماء الفقه تدقيقاتهم وتفريعاتهم ، وكان في الثقافة العامة حظ من الفلسفة . نعم لم تستطع الفلسفة ان تحرز لنفسها المكان الاول ، ولم يتيسر لها ان تستعيد المكانة التي كانت تتمتع بهـا من قبل ، وكان الفلاسفة عرضة للاضطهاد في بلاد كثيرة ، لانهم اعتبروا خطراً على الدين والدولة ، على ان هذه الحال لم تكن سوى علامة من علامات تدهور عام في المدنية . »

هذا مجمل آراء بعض الباحثين في هذه الشخصية الفذة التي نسعى الى تبيان ما كان لها من اثر ، اوردناه ونحن لا نقصد الى مناقشته واظهار ما نعتقد فيه من مواطن الاصابة ومواقع الزلل وانما قصدنا من ايراده ان يكون للقارىء وجهات من النظر متعددة يوازن بينها ويقارن ، حتى يخرج لنفسه بالرأي الذي يستريح اليه .

كنت ذكرت ان التفكير الاسلامي في تلك الفترة كان يرتدي احد الاثواب التالية :

إما الفلسفة الهلينية ، او علم الكلام ، او العلوم الدينية او العلوم الدنيوية او التصوف . رغم اننا لا نستطيع ان نطلق على هذه الاردية المختلفة اسم المدارس (حتى ولو تأخرت) . واننا سنسعى الى بيان تأثير الغزالي في كل منها .

الفلسفة الهلينية : لو تطلعنا الى نتاج الغزالي الذي يدور بوجه من الوجوه حول هذا الفرع من التفكير لرأيناه يقف على المنقذ والمضنونين ومقاصد الفلاسفة وتهافتهم . ماذا تركت هـذه الكتابات من اثر ، واذا سلمنا لها بأثر ما ، فما هي طبيعة هذا الاثر اسلبية هي ام ايجابية ؟... الحقيقة ان تقرير وجود هذا الاثر او عدمه امر شائك وصعب التحقيق . مما لا شك فيه ان الفلسفة — بالمعنى المهني هذه الكلمة — قد اصابها وهن وانحلال بعد الغزالي ، ولكن هل يرجع هذا الوهن وذاك الانحلال بالذات ، الى الهجمات التي شنها الغزالي على الفلاسفة ومعتقداتهم ؟. اليس من الثابت ان الركود الفلسفي قد ظهر واضحاً بعد ابن سينا ، وذلك ابتداء من اواسط القرن الخامس تقريباً ، اي قبل ان يوجد الغزالي او على الاقل قبل ان يكون قد آن لمؤلفاته ان تفعل فعلها المخدر في هـذا النوع من المعرفة ... لن اثير هنا اشكال علم الاجتماع القائم حول طبيعة التقليد والابداع في المجتمع ، كذلك لن اقطع بين تارد ودور كهايم فيما اذا كان الفرد هو الذي يبدع فيتبعه المجتمع ، او كان المجتمع يتمخض فيبعث رسوله يعبر عن اراء يشعر المجتمع بصحتها وبضرورة اتباعها ، لا لن افعل شيئاً من ذلك وانما ساكتفي بلاحظة ان كتابات الغزالي جاءت في زمن كانت الفلسفة والاشتغال بها ، كما كان المنحى التفكيري الذي تخلقه هذه الدراسة ، عناصر مضطهدة وخائرة ، فكان من اثر هذه الكتابات ان زادت في هذا الاضطهاد كما امعنت في ذلك الخور . اما ذلك الاثر الايجابي الذي كان لاحد كتب الامام ، ونعني به كتاب **مقاصد الفلاسفة** ، وما

يذهب البعض اليه من ان الغزالي قد الفه في زمن كان يهوى فيسه الفلسفة ويدعو اليها ، فاني اظن أن ذلك فيه كثير من الهراء ، حتى ولو صرّح كارادوفو انه كان لهذا الكتاب الفضل في انهائه بعض المسائل الفلسفية التي صعب عليه تفهمها عند امة الاسلام ورغم اننا نقرر ان اثر هذا الكتاب من الناحية الايجابية كان معدوماً ، فاننا نرى ان مسألة القطع فيما اذا الفه الغزالي قبل الازمة او بعدها ، اي قبل حربه على الفلسفة او بعدها، مسألة تحتاج الى التثبت من تاريخ كتابة هذا المؤلف ، الشيء الذي نحن وباحثو الموضوع خاو منه الان ، ونحن نميل الى الذهاب مع جمهور البحاث في ان الغزالي لم يؤلف هذا الكتاب الا وبنيته الرد على ما ورد فيه فيما بعد .

لننتقل الان الى علم الكلام لنلاحظ الطابع الذي امكن لكتابات مجدد الدين ان تتركه فيه . . يقول كارادوفو ان الغزالي لم يخترع نظاماً خاصاً في هذه المادة وانما يمكن القول انه قد طرد منها المشاحنات التي لا طائل تحتها ، كما حارب حب الاستطلاع الدقيق والعجب العقلي ، وكان همه ان يجعل الايمان يطغى على الناس فيغمر قلوبهم بفيض مطمئن هادىء . هنا يطيب لنا ان نتساءل هل ظل المتكلمون اوفياء لهذه التجديدات التي رأى الغزالي ان يُجد بها من النشاط المتقد الذي كانت تضطرم به عقول فرسان الفكر آنذاك ؟ . . . انه من المقرر ان كتابات الغزالي ظلت حتى هذه الايام المرجع في المسائل التي بحثها ، ولكن هذا لا يعني ان علم الكلام قد نام بعده او رضخ لهذا الحد من نشاطه وطرقه الذي اراده عليه حجة الاسلام . . . لقد كان لنا بعد الغزالي رسائل كلامية كثيرة وضعت على نحو يقرب من نحو الفلاسفة والمعتزلة اكثر مما يقرب من نحو الغزالي . لقد كان المذهب الرسمي لاصحاب هذه الرسائل هو الاعتقاد السلفي الصحيح ، وكان هذا المذهب هو المقرر في رسائلهم ، ولكن روح هذه الرسائل لم يكن دينياً بوجه من الوجوه، انه يمكن بدون مغالاة عد هذه الرسائل رسائل فلسفية لما احتوت من حجج سكولاستيكية ، ومن روح تحليلية تقربها من المعتزلة ، ومن انظمة الفلاسفة الذين اخذ هؤلاء عنهم .

من اصحاب هذه الرسائل نجم الدين ابو حفص عمر النسفي المتوفي سنة ٥٣٧ ، صاحب «العقائد» ، هذا الكتاب وما عليه من شروح للتفتازاني وغيره يدلنا بوضوح على ان الدينيات التي كان الغزالي قد نزع عنها هذا الرداء الفلسفي عادت فظهرت بعده في ثوب لا يقل تفلسفاً وتعلقاً بالحجج عن تلك الرسائل التي اظهر الغزالي تغاليها في الجدل والرجوع الى العقل . تبتدىء هذه الرسائل ، كما تبتدىء معظم الرسائل التي كتبت لنفس الغاية بمقدمة يسعى صاحبها الى بيان فضل العلم وامكانه ، هذه المقدمة التي كانت تقابل تلك المقدمة المنطقية في كتب الفلاسفة المشايعين لارسطو على العموم ، ترجع بدون شك الى روح افلاطونية غايتها الرد على السوفسطائية ، ولكي نقرر ان هذا يخالف ما اراده الغزالي وما كان يرتئيه في الموضوع يكفي ان نقول انه ابتدأ في كتابه «المنقذ من الضلال» بمقدمة سعى فيها الى تقرير معيار للاعتقاد، واكتفى بهذا السعي دون الذهاب الى تقرير صحة العلم وامكانه بل وجوبه : الشيء الذي اجمع عليه كتاب الرسائل الدينية من بعده .

يخلص لنا من كل ذلك ان الغزالي لم يصل الى ما يريده من طبع النتاج الكلامي بطابع الايمان ، كما لم يصل الى ما يريده من نزع هذه النزعة الفلسفية والجدلية عنه ، وهنا يحلو لنا التساؤل : لم لم ينجح الغزالي في مسعاه ؟ . . . يخيل الي ان اخفاقه يرجع الى اباء طبيعة الكلام ذاته لتقبل الاصطلاحات التي ارادها له امامنا . ان وجود علم الكلام لم يكن الا استجابة لرغبة شعر بها مفكرو الاسلام في الدفاع عن دينهم تجاه الاديان والمعتقدات المغايرة له ؛ وكان عليهم ان يتسلحوا بنفس السلاح الذي يصطنعه غيرهم وهو النظر العقلي والجدل والمحاجة . اذن كان طلب الغزالي من علم الكلام ان يتجرد عن هذه الدقائق الفلسفية وان يعتمد على الايمان طلباً غير معقول ، لانه بذلك يكون بالضبط كمن ينزع من المحارب سلاحه ، ثم يعزله عن ساحة المعركة ، ثم يعتقد انه قد ترك له الخيار في خوض غمار المعركة .

وهنا ارى تساؤلا قلقاً يدار على الوجوه ، تساؤلاً يقوى ويشتد ثم لا يلبث ان يظهر واضحاً ويقول :

مالك تتكلم عن محاربة الغزالي لعلم الكلام ؟ ألم تقرأ التهافت ، تلك الرائعة في الجدل السكولاستيكي ، ثم الا تشعر ان الغزالي في ذلك يستحق ان يوصف بانه اعطى المحاجة السكولاستيكية ، اقصى قوتها ونهاية شكلها ؟ الا تعتقد ان مكدونلد على حق حين يقول : انه اذا كان الاشعري قد ادخل الجدل والمنطق اليوناني الى الكلام بطريقة تفتقر الى الكمال فانه مما لا شك فيه ، ان الغزالي قد اتم ما بدأ به ذلك الرجل ؟! . . .

هذا التساؤل القلق لم يكن الا دليلنا الى «الجام العوام عن علم الكلام» .

ان تهافت الفلاسفة هو نتاج كلامي من الدرجة الاولى، وأنا اشعر بتعارض هذا الحكم مع ما ذهبت اليه من رغبة الغزالي في اماتة

جناح علم الكلام ، واذا كنت اشعر بتعارض بين دعوة الغزالي وبين تصرفه،فاني لن اقصر دون محاولة ايجاد تفسير لهذا التعارض .

اذا كان الغزالي يصطنع في رده على الفلاسفة هذا النوع الراقي من « الكلام » الغني بالحجج والردود والادلة ، فلمَ يـدعو في مواقف متعددة من كتبه الاخرى الى تجريد علم الكلام من هذه النفحة العقلية ويطلب منه ان يقتصر على الايمان ؟

يظهر ان الغزالي حينما كان يـدعو الى تلطيف علم الكلام ، انما كان ينظر الى تأثيره في عامة المسلمين ، ولا اقصد بعامة هنـا ، جهال المسلمين ، انما اقصد بهـا جمهورهم ؛ لقد رأى ان الكلام في صبغته الفنية الدقيقة، وفي رجوعه الى العقل —واليه فقط— لا يمكن له ان يوجد هذا الايمان والاطمئنان في العقيدة الاسلامية ؛ ومما زاده اندفاعاً في حضه على تحويل الكلام عن الحجج الفلسفية العويصة ، وعن اعتماد العقل ، والعقل فقط، رغبته في محاربة هـذا الارتخاء في التمسك بعقيدة السلف ، ارتخاء قد يقوى فيصل الى درجة الانحلال من ربقة الدين والى الزندقة .

ولكن تجاه ذلك ، عندما كان يتوجه الى المختصين بالفلسفة ، والى اصحاب الاديان والمعتقدات التي تخالف الاسلام ، لم يكن يجد مانعاً من ان يصطنع هذا النوع الراقي من «الكلام» بكل ما يحويه من مداخلات واشكالات وبكل ما تمكنه منه قوته الجدلية ومنطقه السليم .

لقد رأى الغزالي ان علم الكلام يستوجب تعلم المنطق ، ومن تعلم المنطق اصبح لديه فكرة ثابتة عن صحته ونفعه كعلم، كذلك علم الكلام يستوجب معرفة نظريات الفلاسفة والملاحدة واصحاب المعتقدات المخالفة للدين، هنا شعر الغزالي بالخوف على من تعلم المنطق ورأى صحته ان يظن في سائر علوم الفلاسفة وتابعيهم صحة المنطق ذاته ، وان يعمد الى اعتناقها والتسليم بصحتها ، لذلك دعا الى «الجام العوام عن علم الكلام» .

انه كان نفسياً اكثر من ذلك : فقد رأى ان وضع المسائل الاعتقادية موضع الشك وتجريدها من هذا الروح الاعتقـادي المطمئن ، توطئة لاثباتها بالبراهين قد يؤثر او هو بلا شك ، مؤثر على ايمان النـاس ومزعزعه ، واذا كان الامر كذلك ، فالغزالي يلاحظ ان قليلاً ما تعود تلك الحالة الايمانية السابقة الى القلوب التي تزعزعت فيها حقائق الدين .

هذا الموقف الذي ينازع الغزالي بين الايمان وبين العقل يبين لنا هذا النوع من الـ Antinomie عنده . الشيء الذي دعا كارادفو الى تشبيهه بكانت في هذه الناحية .

والان وقد وضح موقف الغزالي من العقل والايمان ، يمكننا ان نتكلم عن اثره في العلوم الدينية والعلوم الدنيوية . ان مؤلفه الرئيسي في الدين هو الاحياء . في هذا الكتاب يعمد الغزالي الى تفصيل العقيدة والواجبات والمحرمات تفصيلا يمكن ان يعد مرجعاً في الموضوع لمن اتى بعده حتى ايامنا هذه . وهو وان لم يكن من اصحاب المذاهب— اذ ان المذاهب كانت قد تقررت وثبتت مختلف المواقف التي يمكن ان تتخذ حيال التراث الاسلامي—فإنه بكتابه قد اوجد مرجعاً مفصلاً يعب منه كل من اراد ان يتبحر في دينه او يكتب ويؤلف فيه . انه موسوعة شاملة ، وبذلك فهو له فائدة الموسوعات واثره لا يخرج عن اثرها .

اما عن العلوم الدنيوية إن الغزالي لم يؤثر عنه اشتغال جدي باحدها واذا كان له من اثر فيهـا ، فانما هو ذلك الاثر الذي كان يمكن ان تتركه دعوته العامة .

وأما اثره في التصوف فقد كان على الغزالي كامام من ائمة الدين، كما يلاحظ كارادفو، ان يحارب في مادة التصوف من ينكر حقيقة الغيبوبة والاتصال ، كما كان عليه ان يحارب الحلوليين والقائلين بوحدة الوجود .

هذا الشق الاول من مهمة الغزالي يذكرنا بهـذا الضرب من المعرفة الذي اخذ به الغزالي، وهو القائل بأن الانسان يستطيع ان يصل الى الحقائق عن طريق الكشف . وموقف الغزالي حيال هذه النظرية ، هو انه يكتفي بالاعتقاد بها ، واذا ما طلب منه اثباتها ذهب الى اثباتها بادلة من الدين وبشواهد من كبار المتصوفة دون ان يستطيع سبيلا الى اثباتها بالحجج والبراهين العقلية .

لو كان لنا ان نقرر مقدار نجاح دعوته الى هذا الضرب من المعرفة ، لقلنا انه نجاح عظيم يكاد يكون شامـلاً اذا نظرنا الى مجموع الشعب . ودي بور يلاحظ ذلك ، فنراه يقرر ، عند كلامه عن نواحي الحياة الفكرية بعد الغزالي ، ان عامة الناس اصبحوا منقادين لشيوخ الصوفية .

ولكن كم كان مدى نجاحه في محاربة غلاة المتصوفة النازعين الى القول بالحلول وبوحدة الوجود ؟ . . .

ان استطلاع قائمة كبار المتصوفة بعد الغزالي،كما ان استجلاء نظرياتهم ودقائقها يدلنا على ان نجاح الغزالي في محاربتـه للحلولية ووحدة الوجود لم يكن ذا اثر بالغ أو انه لم يمح هذه النزعة بالمرة .

فابن عربي مثلا ، الذي است بحاجة الى اظهار نزعته القوية الى

وحدة الوجود ، نراه يظهر ويفرض رأيه على كثير من المتصوفة . كما نسمع ان الفيروز ابادي وغيره من القضاة والائمة يجمعون على تبرئة دفين دمشق من تهمة الالحاد.

وهنا يجب ان نكون منصفين فنلاحظ ان دعوة الغزالي في هذا المضمار لم تذهب صرخة في واد ؛ اذ لو لم يكن لها من اثر لما قام من يؤيد ابن عربي الى جمع الفتاوي من المشايخ ليثبت ان ابن عربي كان مسلماً ، ومسلماً معتقداً بالله وبرسوله وباليوم الاخر وبالقضاء خيره وشره.

اننا نلاحظ هذا ونحن لا يفوتنا ان هذه الهجمات ضد ابن عربي وضد من ذهب مذهبه ، لم تكن من المتصوفة انفسهم بقدر ما كانت من معسكر المتمسكين المحافظين .

والان وقد عرضنا لهذا الاثر الذي كان لحجة الاسلام على المدارس بالاجمال ، اراكم وكأنكم تبادرون الى تقرير ضآلة اثر الغزالي في هذه المدارس المختلفة. اذا كان اضمحلال الفلسفة لا يرجع الى الغزالي بالذات او بالكلية ، واذا لم يتمسك المتكلمون بعده بما ارادهم عليه واذا كان خلقه وابداعه في العلوم الدينية والدنيوية ليس بالشيء الذي يدعونا الى اعتباره كسائق عربة الفكر الاسلامي في اواخر القرن الخامس ، يحولها كما يشاء ، واذا كان اثره في التصوف محدوداً ، فأين يوجد اذن تأثير الغزالي ، مالىء الدنيا وشاغل الناس ! . . .

ولم كان هذا الموضوع : اثر الغزالي في المدارس المتأخرة ؟ . . .

كان ابو حامد يشغل حوالى سنة ٤٨٧ هـ منصباً علمياً اجتماعياً نادر المثال ؛ ولكنه شعر فجأة او إثر محاسبته لنفسه محاسبة طويلة ، انه سائر في مسلك يبعده عن الله ورجاله ، لقد شعر ببرود مهول يمد اصابعه الى حرارة الايمان في قلبه فيطويها كشحاً ليجعل مكانها مقدرة فنية على رد الحجج ومقارعة الخصم واثبات الحقائق الدينية بالدليل ، ثم رأى ان القوم قد اخذوا في احترامه وتبجيله لدرجة كادت نفسه معها تترك لعجبها المجال فيطغى ويتجبر . رأى نفسه مدعوا للاختيار بين الدنيا والآخرة ؛ بين القلى والانجذاب ، فما تردد في الاختيار وتطلع الى التقرب من ربه فكانت له خلوات بيت المقدس والشام والبلاد المقدسة : ساعات رغب فيها عن النظريات والقياسات وانغمس في مسالك الصوفية ومعارجها حتى وصل الى ذلك الذي خلى الدنيا من اجله ، فاطمأن قلبه وعاودته تلك الحرارة التي افزع ابا حامد زوالها عنه برهة ما ؛ لذلك نراه يهاجم الفلاسفة ويبطل معتقداتهم وفي سبيل النجاح في هذا الهجوم وهذا الابطال ارتكب بعض الاخطاء كما اوجد بعض النواحي الفريدة في التفكير . وكان من اثر الغزالي ولا شك ان اضعف من هذه السلطة التي كانت للعقل والتي كانت للتراث اليوناني في الشرق .

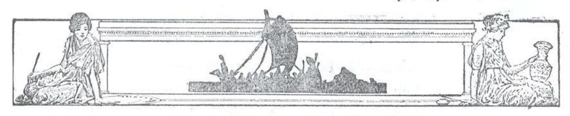
ولكن هل نجح الغزالي في ادخال الايمان الى القلوب بواسطة كتاباته ؟ لقد كان الغزالي صريع ازمة نفسية كما قلت . وكان يكفيه لازالة هذه الازمة حل نفسي ، وانا اعتقد ان هذا الحل اتاه نفسياً وذلك في تركه لهذا المنصب الرفيع الذي كان يشغله في بغداد. اتاه في تلك العبادات والتقشفات التي اخذ نفسه بها ، ولم يأته من تلك الكتابات التي عمد فيها الى ابطال العقائد التي لم تستطع ان تؤمن له تلك الراحة التي كانت نفسه تطمح اليها . ولا يجب ان نتساءل اذا كانت هذه الكتابات قد ساعدت في ادخال الايمان الى القلوب فهو لم يقصد بها ادخال الايمان الى القلوب . اذ كان يعتقد ان الايمان له طرق اخرى في الدخول الى القلوب غير ابطال عقائد الفلاسفة . كان يكفيه ان يشعر انه قد ازال حاجزاً من الحواجز التي تقف بين القلوب وبين الايمان ، وان لم يستطع ان يجعل الايمان يدخل الى القلوب بواسطة هذه الكتابات نفسها .

ولا يعاب الغزالي لانه دخل على الفلاسفة دخول منكر لآرائهم لا دخول مثبت لنظام جديد يقوم مقام نظامهم . اذ هو لو فعل لكان قد تعارض مع نفسه . لقد كان يدعو الى الايمان بالدين ؛ وليس لرجل هذه غايته ان يعمد الى تأليف نظام فلسفي ؛ عليه ان يشتغل بالدين وفي اظهاره بالمظهر اللائق ، وقد فعل الغزالي ذلك فكان لنا ذلك الكتاب الذي هو الاحياء .

ولكن نحن نظلم الغزالي اذا قصرنا رغبته في الرجوع الى الدين والايمان والراحة ، على نفسه ؛ لقد كان همه الاول ان يداوي نفسه . ولكن هذه الرغبة كانت تحمل في طبيعتها ذلك التوسع الذي آلت اليه فيما بعد . انه شعر ، كما قلت ، بحاجة المسلمين الى مقو لعقيدتهم ، شعر بضرورة الاصلاح وبضرورة الدعوة اليه ومن هذا الشعور نشأت تلك الدعوة التي قام بها لاصلاح العقيدة العامة . انه لم يؤثر في المدارس الفكرية المختلفة شيئاً يذكر بجانب تأثيره في مجموع المسلمين ، تأثيراً كان عليه ان يشترك ككل ظاهرة اجتماعية في ذلك التفاعل العام للظاهرات الاجتماعية ، فينعم بمساعدتها حيناً ويتحمل مناوأتها ومقاومتها حيناً آخر .

زهير فتح الله

على هامش معرض الفنانين اللبنانيين



الفنان

بقلم الدكتور سامي محمد علي قلعه جي

قلت في مقال لي مضى ، ان الفن لا يمكنه أن يزدهر ويذكو وهو بمعزل عن الناس ، كما وان الفنان لا يستطيع ان يحيا ويسمو وهو منكمش على نفسه . فالفن ، وإن حلّق في اكناف متسامية ، فإنه يشاطر الانسان حياته الشاملة ، ويبادله النزعات الفكرية والمادية ، ويساهم معه في تكييف المجتمع ، خارجاً عن بلاد وعصر، أو أمة ، ليخلق غيرها ، اكثر قرباً من الجمال ، وأعمق شعوراً بروعته ، وأمتع احساساً ببثه الساري في كل نسيج من انسجة هذا الكون .

والفنان هو كالنحلة الهيمانة في بساتين الحياة ، الغريقة في أثباج من الجمال ، ينتقل حائماً في رحى مروجها ، متسقطاً مواقع البدائع ، مستقطراً نطف المحاسن بريشته المعسولة بالتلاوين العذاب ، ليردها وهي مموهة باصداء نفسه ، الى الناس ، في لوحة تخالها صامتة ، ولكنها في جلوتها المونقة ، تنطق في صمت ، لكل ذي بصيرة انارها الجمال ، فتفصح عمّا لسجية صانعها من المواهب او المهارة ، راقية او وضيعة ، ومن الرغبات ، مكبوتة او مضطرمة، ومن نوازع نفسية تخبو او تضيء ، ومن قلق يتوهج او استكانة تستقر، محملة بكل مايساوره في ساعة الابداع ، حينما يرتمي بمجمعه ، ليرسم مشهداً استهواه ، او يستوحي صورة تتمخض في دخيلته ، او يؤلف رسماً يتولد في خلده، ليحلها في ثوب قشيب، مقتطعاً قماشته من نفسه ، موسومة بنبضتها ، مصطبغة بخصائصها . فاللوحة الفنية هي في مجموعها ، نفسيات انعتقت من مشاعر الفنان فسلكت سبيلها من ريشته ، وتلقت حياتها من اصباغه، واستمدت روحها من روحه .

إذ أن في الاساس ، كل صورة هي ملخص رمزي للتصورات الجمالية المنسجمة ، التي يكون للفنان منها ، عالم لا نهائي من ضروب الاحاسيس الذوقية ، ومن شتى الاشكال المستعذبة، والانفعالات المرهفة .

وليس الفن الا نداء عفيف ، طاهر ، كريم ، موجه من فئة مصطفاة الى طوائف الناس ، وما الفنان الا مبعوث متبتل ، الى هؤلاء ، من لدن الطبيعة ، ليدل بريشته المسحورة على مرابع الجمال فيها ، والى مواطن المرئيات والمظاهر الاخاذة ، التي تدق غالباً على أبصار البشر .



شيخ درزي — بريشة مصطفى فروخ

فصلة الفنان مع المجتمع الذي يعيش في صميمه، هي مستوثقة الاواصر، مستحكمة الروابط، اذ، لا يخفى على احد، ان الفن كان ولا يزال، القوة الكامنة في قاعدة التطور الانساني، فهو في الحضارات، تاجها، وكم من مدنيات بائدة، طوتها العصور، فذهبت ذهاب الرياح، وبقي فنها، دالاً على ما كانت عليه من مجد شامخ، ورفعة باسقة وحضارة منيرة ؟...

وبعد، فقد يخالني البعض ممن يقرأونني، أنني اغالي في كلامي وأسرف في مقالي، أو إني احاول ان اجعل من الفنان احد انصاف الآلهة. وظني أن هؤلاء، وما اكثرهم لم تتألق من نفوسهم المحيلة، إشعاع المثل السامية، المجددة للدماء، المحيية للقلوب. هؤلاء يمرون في الحياة، مرور الاطياف، متخبطين في حمأة تيارات العصف، متراكمين، متلاصقين متلاحقين، دون ان يفقهوا لدنياهم شيئاً.

« وقلوبهم، كما يقول الدكتور منصور فهمي، لا تشعر بما تشعر به القلوب، فلا تحس الوان الجمال المتصلة بظاهر الخلق، ولا تتأثر بضروب الاحداث التي تختلف في هذا الوجود، ولا تخفق لآيات الله في السموات، ولا تخفق لآيات الله في الارض، ولا لآياته المطوية في كر العصور وعبر الدهور. ونفوسهم محجبة وراء سجوف من السواد، لا يصل اليها ضوء الانوار المتلألئة في نواحي الجمال، ولا تنبعث فيها حرارة الايمان بالتقدم والخير، ولا يستعر منها قبس لنار الهمة المتحفزة الى الأمام. »

فهم عمي وان كانوا مبصرين.

وقد جاء في الأثر ان « ليس الاعمى من عمي بصره ولكن من عميت بصيرته » فطوبى للذين تفتحت ابصارهم الى مرئيات الجمال، فراحوا في حدائق الارض، وفي قلوبهم قبس وفي عيونهم نور. فالخالق الفاطر، مبدع العالمين، دحا الارض فوشاها، في بحرها وبرها بآيات من الجمال، عجاب!

وكان لا بد لها من رسول لهفان، صادق معجب كي ينطق عن لسانها ببراعة صامتة، مترجماً عنها بافتتان محبب، مشيراً بالوانه التي كثيراً ما تحكي الوانها، الى مشاهدها التي تتشكل وتتبدل وتتنقل في لا نهاية معجزة.

فكان الفنان!

هذه كلمات لم اسقها جزافاً ولم اسطرها إلاّ لعلمي ان لا شيء في هذا الوجود، يسيطر على العقل والمشاعر ليذكيها، كالفن. فالجمال يحركنا ويلهمنا ويهدينا. وهو اخ اول للحقيقة والمحبة. والثلاثة بمجموعها هي كل ما تتوق اليه قوافل الظماى السائرة قدماً في صحاري هذه الحياة. وكانت الانسانية ولاتزال تكد وتكدح لجمع شمل هذه المثل الثلاث: ولعلها يوماً بالغتها.

هذه خواطر اوحاها اليّ معرض الفنانين اللبنانيين الذي اقامته جمعية الفنانين اللبنانيين في غضون الشهر الفائت في قاعة العرض بدار البرلمان ببيروت، فكانت ظاهرة فنية سر لها الكثيرون، اذ انها لاقت من اقبال الجمهور وإعجابه ما كان مفاجأة سارة، لمنظميه، فكان برهاناً على ان الجمهور اللبناني متزايد في تذوقه وتقديره للفن الجميل، فتهافت بتكاثر للتفرج على ما ينتجه اليه نفوس الفنانين الذكية. وحتى اني رأيت من زار



البـدر بريشة صليبا الدويهي

المعرض اكثر من مرة، وهذا ما ضاعف في سرور العارضين. فاللوحة الفنية لا تعطي سرها، ولا تدخلك الى روعتها، في مشاهدة واحدة، والتفاعل الجمالي في النفس، واللذة الفنية النبيلة التي يجب ان تحدث عندما نطل على آية فنية لا يتأتيان من الرؤية الاولى. اذ ان الفنان يعبر في لوحة، من الاحاسيس المختلجة في ضميره ما يعجز عن اقامه في كتاب. ولذا كان كثير من الذين زاروا هذا المعرض، يعاودون الكرة لتذوق ومشاهدة متجددين. كما وانه بيعت لوحات متعددة لاكثر من فنان، كفروخ وصليبا الدويهي، وناديا بيضون، ابتاعها ولا ريب، ارباب الهواية الفنية من ذوي الذوق الرفيع.

ولا بد من التلميح من ان هذا المعرض، بالرغم من نجاحه



الراعي — بريشة الانسة بلانش عمون

قدضم بجانب العناصر القوية، اخرى ضعيفة ، اثارت الدهش ،بوجودها ولكن ايقنت متفائلا ، ان الانسان لا يستطيع ان يقدر الجمال حق قدره إذا لم يكن القبح ، كما وانه لا يمكنه ان يتحقق من القوة إذا لم يجاورها ضعف . وكان لبعض المعروضات السخيفة حكمة تدبرتها حين اوجدت نفسي امام القوية والبليغة منها . اما في المعرض المقبل فنتمنى من جمعية الفنانين اللبنانيين ان تهز غربالها قليلًا ، حتى يأتي معرضها عنواناً قيما، صحيحاً سليما، رفيعاً للانبعاث الفنيّ الذي تسعى هذه الجمعية لتحقيقه في هذه البلاد . كما وانه يحلو لي ان اشير ان ثمة فنانين لم يدليا بدلوهما الجميل في هذا المعرض وهما عمر الانسي وقيصر الجميّل، ولكل منهما في عالم الفن شخصيته المستقلة واللامعة ؛ وظني ان الرسالة التهذيبية لمعرض جامع كهذا ، لن تكتمل بدونهما . واذا اكتفيت بالاشارة الى ذلك فلعلمي ان الجهود المتضافرة هي أوفر ثمرة اذ انها القوة المسيّرة الى نجاح اكيد ، ثابت الدعائم . وأولى بالفنان ، اذا كان كذلك ، ان يترفع عن المنازعات ويتنزه منها . فقد قال احد الكتاب : « ان ما يمتاز به الفن وما يجب ان نقدسه من اجله هو ان روحه روح انسانية محضة . اي روح تفاهم ومحبة واتحاد .

فالفن هو الدين الوحيد الخلو من التعصب ، وهو العقيدة الانسانية البعيدة عن فوارق العناصر والوطنيات ، وهو واسطة الحضارة ومطلبها الاول الاخير . »

ولعلنا صائرون الى ما نحن اليه راغبون .

واما المعرض الذي كنا بصدده فقد ضم لوحات فنية وبعض المنحوتات لاكثر من اربعين فناناً ، أخص بالذكر منهم ، الفنان مصطفى فروخ ، فقد اتحفنا هذه المرة بسبع رسوم ، بينها صورة بليغة لشيخ درزي ، قوي المهابة ، كهل ولكنه عارم الرجولة . وهي بين اخواتها ، احدى الثمار الفريدة التي ما برح فروخ يقتطفها لنا من فنه الناضج ، وكان للفنان صليبا الدويهي ، تسع لوحات رئيسية ، منها صورتان ، احداها لامرأة كهلة والثانية لجبلي شاب هما كمناظره متينتا الوسم جيدتا التصوير ، غنيتان بالالوان الحية ، زاخرتان بالتعبير النفسي ، فهنا الكهولة المثقلة بتجارب الحياة وهناك الشباب الساذج المتدفق ، واما السيدة ماري حداد فقد تفردت بشخصية فنية لها طابعها الخاص ولوحاتها غنية بالوان بلغت الغاية من الاتساق والانسجام والحرارة . وكانت بجانبها معروضات جورج ب . خوري تسترعي انظار الزائرين باتزانها ووفرة جمالها . واما الآنسة بلانش عمون فقد استفزت اعجاب كثير من الزوار الاجانب والمواطنين بفنها الجديد ونفحته المبتكرة .

وكنت اود ان اذكر مأثورات كل فنان ساهم بمعروضاته في هذا المعرض ، لو كان المجال ارحب جوانباً ، وقبل الختام اخص بالثناء كلًا من عبد الوهاب عضاضه وسعدي الذي كان لجهوده أثر حميد في تنظيم المعرض ، والانسة ناديه بيضون ، وغيرهما ممن قام على اكتافهم اول معرض فني لبناني ناجح .

عارية — بريشة جورج خوري

سامي محمد علي قلعه جي

الاديب المعتزل

بقلم توفيق حسن الشرتوني

اديب مجاهد صرف شبابه وبعض كهولته يحترف مهنة الادب . لم يفارق مكتبه طيلة هذه الاعوام الا لماماً . ولم يتخذ له خليلاً غير الكتب والصحف والمجلات . ولم يأنف عشيراً غير القلم والدواة

كان يطوي الايام منطوياً على كتاب يقرأه ، او على مقال يدبّجه . لا يؤمّ نادياً ولا يدخل ملهىً ولا يحضر مجتمعاً من مجتمعات الناس ولا عرساً من اعراسهم ولا مأتماً من مآتمهم الا فيما ندر .

وكان جديده ، ما عدا الصحف والمجلات طبعاً ، كتاباً جديداً يُقدّم اليه او يعثر عليه في بعض المكتبات ، وادوات للكتابة من اوراق واقلام ومداد كان بحكم المهنة يحتاج الى تجديدها بين الفينة والفينة .

لم يسبر غور الناس ولم يتعمق في درس اطوارهم وسياساتهم وحروبهم الا بواسطة الكتب . ولم يتعرف الى شتى اخبارهم الا عن طريق الصحف والمجلات .

وكان يخيل اليه وهو جالس على منضدته وبين جدران مكتبه انه يعايش جميع ابناء عصره ، ويعرف من امورهم ما لا يعرفه سواه . لا بل كان يعتقد انه يعايش كل الاجيال والعصور التي طواها الدهر . لان مكتبه مزدحم بانواع الكتب القيمة عامر بأثمن المؤلفات وانفس التواريخ والموسوعات . حيث كان من خلال صفحاتها يتدبر حوادث العالم ومشاكله ويتقصى مجمل شرائعه وعلومه .

اجل انه لم يرقب الناس الا برقب الخطوط المرسومة على الورق ولم يرصد عوالم اذهانهم وغرائزهم الا برصد الحوادث اليومية التي تتسابق الى اذاعتها امواج الاثير والصحافة . لانه لم يعن بشيء في حياته الا بالمطالعة والتأليف . فجاءت تآليفه على جزالة اسلوبها وروعة بيانها ودقة انسجامها متسمة بما كان يتحراه في دفات الكتب وما كان يعلق في نفسه من اخبار الصحف وصوت المذياع . وبرزت احكامه مستمدة من معين الدرس لا من معين الخبرة ودقة الملاحظة .

ومع هذا كان فخوراً الى ابعد حد بسعة معارفه وتياهاً كل التيه بمؤلفاته التي عالج فيها مشاكل المجتمع على ضوء دراساته ومطالعاته لا على ضوء تجاربه واختباراته .

وفجأة طرأ عليه مرض عضال اقعده عن متابعة الدرس والتأليف فلزم فراشه واستسلم الى معالجة الاطباء . وكانت المعدة بيت الداء ومصدر البلاء . وذلك لاعتزاله في مكتبه وانعكافه الدائم على المطالعة والكتابة غير حافل بالرياضة والتنزه ولا آبه بمجالسة الناس ومسامرتهم ليسري عنه بعض متاعب الذهن واسترخاء الجسم .

ولما تحسنت حالته بعض الشيء حتم عليه الاطباء ارتياد الملاهي والمتنزهات واستعمال الرياضة البدنية لاعادة قواه التي اسرف في تبذيرها بين الدفاتر والمحابر . وصرحوا له انه لن يتمكن من الحصول على النقاهة التامة ما دام معتزلا في برجه العاجي منعكفاً على مزاولة الادب والعلم دون سواهما .

فشرع يخرج من منزله ويصرف بعض نهاره متنقلاً في ضواحي المدينة وشوارعها . ثم بدأ يخالط الناس ويؤمّ نواديهم ويختلف الى مجتمعاتهم فتبين له فور احتكاكه بالمجتمع واستكناه بعض حقائقه : ان عالم الناس هو غير عالم الكتب .

اجل لقد تحقق بنفسه ان مخالطة المجتمع مصدر علم الاجتماع وما الكتب والصحف والمجلات الا بمثابة المياه المستقاة من الاقنية لا من مصدر النبع ، فكما انها تتلوث في جريانها بادران الارض ووحولها هكذا ما حُبّر وما كتب فلا ينجو من ادران الطبيعة البشرية ووحول غرائزها ، حتى ان الطبيعة بما فيها من حيوان ونبات وجماد بعد ان تفقدها الاديب بنفسه رأى فيها من العجائب والمدهشات ما لم يره في معارض العلم ولا في روائع الادب ولوحات الفن .

صور جامدة كان بالامس يقلبها بين دفتي كتاب فيؤخذ بروعتها وجمالها وينسج على منوالها . وصور ناطقة يستعرضها اليوم في كل بقعة من بقاع الكون فيجن جنونه لاهماله اياها طوال اعوامه المنصرمة .

لقد بدأ يشعر بان الكون جسم حيّ ينبض بقوة الروح ويتجدد بتجدد الحياة . اما الكتب فموميااءات جوفاء تكتنفها برودة الموت غير انه بعد ان تدبر عوامل الحياة والموت رآهما بحكم ناموس الكون صنوين لا يفترقان فحيث توجد الحياة يوجد الموت . وما الكون سوى مجموع مواد تنبجس منها عوامل الحياة والموت . هكذا رأى ناموس الادب والعلم تنبجس مواده من عالم الكون وعالم الكتب.

فقال في نفسه : من لا يتحرى العالمين ويمعن في درسهما لا ينضج علمه ولا يخلد ادبه . ونهض في الحال الى مؤلفاته التي كان يؤمن بخلودها وجمعها امامه ووضعها تحت منظار النقد . ثم شرع يرقب ما فيها من ميزات الخلود . فرآها على ضوء اختباراته الجديدة خاوية خالية لا روح فيها تنبعث من روحه ولا حياة تنبثق من حياته .

فطرحها عنه . ثم اخذ بعد قليل يجمعها اكواماً اكواماً ويلقيها في النار ، مؤثراً ان يرى نتيجة جهاده الطويل لهيباً متصاعداً في قبضة الهواء ودخاناً متطايراً في حومة الفضاء من ان يراها امامه مولوداً عقيماً لا رجاء منه .

وكم كان يتمنى الوصول الى مجمل كتبه التي يتداولها الناس ليقضي عليها جميعاً لانه رآها لا تنبع من معينه ولا تعبر عن غثه ولا عن سمينه . فهي ليست الا ترجيع اصدية ومجموعة نخب مما علق بذهنه من كثرة المطالعات والدراسات .

ويا ليتها نخب تنطبق بمجموعها على وقائع الحياة وحقائق الوجود .

فكم من الانظمة والشرائع التى كان يطلع عليها فى بطون الاوراق فتستهويه بدائع آياتها . غير انه بعد الاستقراء والبحث لم ير لها اثراً في قلب المجتمع البشري . فهي لا تعدو سطوراً محنطة بالحبر ومكفنة بالورق لا يعمل بها الناس ولا تطبق بالواقع على حياتهم .

وكم كان شغوفاً ببعض الكتب الحديثة التي تبحث في روحانية الاديان وتقديس الاوطان وتدقق في علم السياسة والعمران وتفاخر بالادب والاجتماع وتغالي في وصف الحضارة ووفرة فضائلها . غير انه بعد ان عجم عود الناس تبين له ان معظمهم يستخدمون الوطن للتحكم والنفاق والسياسة للدها والريا . والادب والاجتماع للمناظرة والاستمتاع والعمران لعمران الجيوب لا لعمران الشعوب .

ناهيك عن حضارتهم ووفرة فضائلها فالفاها مشيدة على دعائم الآلة والنار والحديد لا على دعائم الدين والخلق والمبدأ الرشيد .

فقال في نفسه : ان عصراً يتاجر ناسه بالاديان وسواسه بالاوطان ويتسابق علماؤه باختراع آلات التدمير وخطف الارواح ويتزاحم تجاره على اجتناء المغانم واكتناز الارباح ، لا يعد عصراً يشرف الانسانية كثيراً مهما يبلغ من سلم الحضارة والعلم .

لقد تجلت امامه حقيقة روح العصر في مخالطته ابناء العصر . فكيف يتسنى له الوصول الى حقائق السلف وليس لديه من المستندات سوى ما ترويه الكتب والتواريخ التي تعبّر عن ميول واضعيها اكثر مما تعبّر عن الوقائع الراهنة .

فاذا كانت الكتب العصرية التي في متناول يده مشحونة بالتكهنات والمغالطات ومملوءة بضروب التمويه والخزعبلات فكيف بالكتب القديمة ؟ انها ولا شك تسدل على الحقائق سجفاً كثيفة من سجف الاهواء والخرافات .

فكم في تضاعيفها من سفاح يحمد وعاذل يذم وغبي يكرم وفيلسوف يهان ورجل يغمط حقه واخر يعطى فوق حقه وهكذا .

لقد اجمع مقتنعاً لا بل مؤمناً على ان ما تستوعبه الذاكرة من المطالعة والدرس لا يعد كله ادباً صحيحاً او علماً راهناً او تاريخاً حقيقياً لحوادث الانسانية في خلال العصور . ورأى نفسه يحتاج الى ان يتأدب تأدباً جديداً .

فشرع يدرس ويمحص ما يدرسه ، ويكتب ويدقق فيما يكتبه ، ويقارن بين وعي الذاكرة ووعي العقل ، وبين ادب التقليد وادب التوليد ، وبين ما يختبره بنفسه في مطاوي الكون وبين ما يراه بين دفات الكتب .

فتبين له ان الفكر هو مصدر المعرفة الانسانية ، واللغة منطقه ولسانه ، والنقد حجته وبيانه ؛ فعقيم الفكر عقيم الادب والعلم ، وسخيف اللغة سخيف المنطق واللسان ، وضعيف النقد ضعيف الحجة والبيان .

اما الدماغ فاداة التفكير ، والمخيلة فآلة للتصوير ، والذاكرة فمستودع للتعبير . واختبار الدنيا وورودها من شتى مظانها يساعد الدماغ على توالد الافكار ، والمرئيات على اختلافها ، تشحذ المخيلة على الابداع في قوة التصور ، وقراءة الكتب وتمحيصها تغمر الروح بالثقافة وتعمر الذاكرة بشوارد اللغة ومفرداتها .

ومشى على هذا النحو في ادبه الجديد يشق لنفسه طريق الخلود . وكان الداء الذي الم به هو الداعي لتعديل خطة حياته وجهوده ، وسبب تجدّده وخلوده . فكم في الحياة الدنيا من شر يورث الخير ، ومن خير يورث الشر .

توفيق حسن الشرتوني

شاعر

كانت جميلة كشهر نوار
وكان يعبق منها العطر كورده
واسمها كان مباركا كهذا الشهر الجميل
جاءها يوماً شاب خبيث
ضحك من زهوها
فزادها غرورا
قال لها :
انت اجمل من نوار
وعطرك اعبق من ورده
واسمك شيء من السماء
فآمنت بما قاله الشاب الخبيث
وركنت اليه
واخلص لها الشاب شهرا كاملاً كنوار
وفي اول حزيران تركها
اما هي فما زالت ترى أشهر السنة كلها كشهر نوار
وما زال انفها يعبق برائحة العطر
وقد شمخ هذا الانف الدقيق
فشوه على دقته الوجه الناصع المستدير
وتقضي الايام
وشهر نوار لا تفارقها ايامه
الى ان جاءها يوماً شاب بحياء ورد نوار
فقال لها احبك
فضحكت من براءة الطفولة الساذجة
ولم تتميز العنفوان في خشوع الشباب
ولم تتفهم اخلاصه
فقال لها : انا البنفسج بين انامل

لي الهمس الناعم ، وليس لي الشوك
فقالت له : انا لا أحب البنفسج
انا وردة ، ومني عبق الورد ، وشوك الورود
وضحكت من الطفل الشاب
ذهب الطفل كسير القلب ، واقسم ان لا يراها
ولكنه اقسم ايضاً ان لا ينساها
وكان الطفل شاعرا مجهولاً
فأخذ ينشد في الناس مأساته
فاستعذب شعره كل الذين سمعوه
ولقبت به العذارى اميرها الصغير
فأحاطه العذارى ، وكان بينهن ينشد
فيخفقن له
ولكن قلبه كان مع تلك السيدة ذات الانف الدقيق
وبكى الكثيرون لقصته ، وتناقلتها العذارى همساً ،
وكن يشرن اليه كلما مر ، او تراءى لهن
اما هو فلم يحفل بأحد ، وظل مسترسلاً في نشيد ذلك الحب الطفل
اما هي فما زالت تؤمن بنوار

* * *

وهمس ورد نوار ، في اذنها ، حفيفاً لم يستشعر به احد من الناس
حتى ولا الشاب الخبيث
ولكن العذارى رأين الشاب الطفل يجمع ورقات وردة ، تفها الخريف
وكان الطفل الشاب يبكي بخشوع وسكون
وهو يجمع تلك الوريقات ويرفعها الى فمه ويقبلها بشيء من التقديس
فبكت العذارى لبكاء الطفل
الذي نسي الشعر
وأصبح شاعرا كبيرا

البير اديب